الفصل السابع

القضاء والقدر

لقد جاءت بي العناية الإلهية من شواطئ البحر المتوسط إلى حضرموت، كما أعدت لي استقبالاً حاراً على شواطئ المحيط الهندي، وأعرضتُ متعمداً ،على الرغم من أن ذلك لم يكن نابعاً بالكامل من إرادتي الحرة عن استحسان العالم لعمل بطولي فذ في سجلات الأسفار. فلا إليوس جاللوس قد كحَّل عينيه بمحيط الهند، ولا ملكة سبأ قد مشت بخطى وئيدة على كورنيش بحر «المنطقة الوسطى» فلا ينبغي ذلك، ولا يمكن أن يكون. فالقدر لم يكتب النجاح للطامحين الذين يخطبون ود قمة يفرست العذراء. ومع ذلك يجب على الجزيرة العربية أن تدفع الغرامة عوضاً عن بروتة جبال الهملايا. وفي تلك اللحظة كان هناك شيء واحد فقط يحتمل أن يكون سبباً في إيقافي عما عزمت عليه، وفي تلك اللحظة وقع هذا الشيء. فسيارة الأمتعة -نظراً لزيادة حمولتها بشدة على الرغم من تحذيراتي المتكررة- قد كُسِر عمود محورها الخلفي. وكان خبراؤنا في جدة قد أفادونا قبل بدء الرحلة أن مثل هذا الشيء لا يمكن أن يقع، ولم يكن هناك عمود احتياطي ضمن معداتنا التي كانت تضم قطع غيار بوفرة لجميع حالات الطوارئ الأخرى تقريباً والتي يمكن تخيّلها؛ ولذلك تركنا الشاحنة في وضع بائس في شبام . وكان التصرف المحتمل هو أن نهجر كلا السيارتين ونواصل الرحلة بالإبل، فسيارة واحدة قد تكون مصدر إزعاج على أفضل تقدير وخطراً على أسوأ تقدير. وهذا -على كل حال- ما لم أكن مستعداً لتنفيذه دون أن نبذل كل جهد معقول أولاً لإصلاح العطل. وكنا قد علمنا من قبل أن شبام قد تم البحث فيها عن قطع غيار دون جدوى. وربما يمكن أن تمدنا سيئون أو تريم بما عجزنا عن العثور عليه. وإذا لم يتحقق ذلك فليست الشحر إلاّ على بُعد أربع وعشرين ساعة من تريم بطريق السيارات، وإذا عدنا بخفي حنين من الشحر، فالمكلا لا تبعد

عنها سوى ساعات قليلة. ومن هناك يستطيع المرء في الواقع أن يتصل بعدن برقياً. وإذا لم تستطع عدن أن توفر احتياجاتنا فيمكننا أن نتخلى عن تلك السيارة أيضاً. وفي أسوأ تقديراتي قد يستغرق الأمر منا أسبوعين للحصول على غيار للعمود من شبام. وفي الحقيقة استغرق ثلاثة أسابيع، نظراً لطول الفترات الزمنية الفاصلة بين القوارب القادمة إلى المكلا من عدن. وفي تلك اللحظة كان الشيء الأكثر أهمية هو أن نقرر ما سنفعله الآن، وكان قراري الفوري أنه يجب على جماعة الإبل مواصلة السير إلى شبوة وتنتظر وصولنا هناك، في حين عدت أدراجي إلى شبام، وأنا أكثر ملياً في خططي أثناء السير.

ولم أكد أنتهي من التفكير إلا ونفذت ما اهتديت إليه. ففي الساعة الثانية والنصف ظهراً كنت قد وصلت فعلاً إلى شبام وبدأت أتفحص موقع المصيبة، يحوطني تسعة من رجالي الأشداء أقوياء البنية والذين قصموا ظهر السيارة. وفي غضون دقائق قليلة كنت قد شرحت خططي، التي ربما تنطوي على زيارة للمكلا. وتنهدوا جميعا بتأوهات عالية من احتمال بقائهم أسبوعين في تلك الورطة، ولكني أخبرتهم بصراحة وقسوة أنهم هم أنفسهم المسؤولون عنها. وأجابوا في حلم ولين إنها كانت قضاءً وقدراً. وربما كانت فعلاً من محن القضاء والقدر. وبعد الانتهاء من تخزين أمتعتنا في كوخ مكشوف بجوار الطريق انطلقت إلى بيت آل عجاج لتناول كوب من الشاي قبل استئناف رحلتنا في الرابعة والنصف عصراً إلى سيئون مع دليل، والذي سرعان ما ضل الطريق وورطنا بين بساتين النخيل وقنوات الري في القرى الواقعة بين الحوطة والغرفة. وعند تلك القرية الأخيرة سلكنا الطريق الرئيس مرة أخرى، وفي الخامسة والنصف عصراً كانت سيارتنا تصلصل وهي تسير داخل قرية سيئون وتشق طريقها حتى وصلنا إلى فيلا السلطان. وقد تسبب وصولنا في حدوث قدر معتدل من الاهتياج والضجة، ولكن لم تكن هناك أي شائبة في حرارة ومودة استقبال السلطان لنا. وكان محمد -السائق- قد جال في جميع المخابئ بحثاً عن عمود محور احتياطي

دون جدوى، بينما مكثت أتجاذب أطراف الحديث مع السلطان علي وقلة من الآخرين حتى العشاء، والذي كان عشاء جاوياً من الطبقة الأولى. ولقد كان السلطان -علي ابن منصور- شخصاً شديد الجدارة بالحب. مليئاً بالفطرة السليمة والحكمة، ومتحدثاً لبقاً غير متكلف، وقد منَّ الله عليه بنعم الحياة الطيبة، مثل: الحياة المنزلية السعيدة مع أولاده الستة وكريمتيه الاثنتين، والثروة العظيمة، والممتلكات الواسعة، وقدر من الاستقلال السياسي مع جيش دائم قوامه حوالي ٥٠٠ من المماليك ليدفع عنه كيد الأعداء، علاوة على قوات القبائل التي يمكنه أن يستدعيها عند الحاجة. ولم أستطع أن أتمالك نفسي من القول له، عندما كنا نتكئ في ساحة القصر المكشوفة بعد عشائنا الرائع للتمتع ببرد الليل الجميل ونحن نحتسي أكواب الشاي وندخن الغليون: كم تبدو ساحرة لي هذه الحياة العامرة باليسر والراحة عند مقارنتها بعملي ولهاثي الذي لا يتوقف. فأجاب قائلاً: «الغريب... قد يبدو الأمر كذلك، ولكن الأشياء ليست دائماً كما تبدو...» وقد جمع في هذه الملاحظة كل شكواه في إيجاز شديد كي أمعن النظر فيها. هذه الشكوى لم تصدمني لكونها كبيرة جداً أو مزعجة، ولكن لأنه إلى درجة ما لا يمكن علاجها في ظل الظروف القائمة. وتنصهر هذه الشكوى في نقطتين اثنتين يمكن إيجازهما بالتحديد كما يلي:

١) إن منطقة نفوذه ليس لها منفذ على الساحل، وهذا يعني أنه هو وشعبه لا يستطيعون السفر إلا بالمعاناة وشق الأنفس، كما أنهم عُرضة لأن يشعروا بعدم الراحة والإزعاج بالكامل من تلك الجمارك والإجراءات التي تفرضها عشائر أخرى وقد تكون سارية في أي وقت، وهي اسمياً تنطبق على الجميع بدون تمييز، ولكنها في واقع الأمر لا تُطبق على العناصر التي لها محاباة أو تفضيل.

٢) إن أي مسألة يريد أن يتشاور فيها مع الحكومة البريطانية يجب عليه تقديمها عن طريق السلطان القعيطي في المكلا، على الرغم من أنه حر في إرسال نسخة من مثل تلك المستندات المقدمة إلى سلطات عدن مباشرة. وهذا تنازل إن دلَّ على شيء

فإنما يدل على مواصلة الإذلال بهذا الترتيب. وفي الحقيقة قد لا يكون لهذه الشكاوى إلا أهمية قليلة، ولكن شرارة واحدة تكفي لتفجير مخزن بارود. ولم أستطع أن أخفي شعوري بأن شرارة -وقد تكون خطيرة- تكمن في مكان ما في أعماق السخط والاستياء لدى آل كثيري.

إن إطالة إقامتي المؤقتة في حضرموت والبلاد الواقعة على شاطئها على نحو غير متوقع قد وفرت لي فرصة كي أسمع وأرى أشياء ،في غضون تلك الفترة القصيرة التي خططت لقضائها في المنطقة، لم أكن أستطيع أن تمنى دراستها بصورة كافية لتغطي ولو مسحاً موجزاً للموقف. وحيث إنه كان أمامي ثلاثة أسابيع إضافية وليس لدي شيء مخصوص لإنجازه ، نظراً لأنني قد تركت كل متاعي ورائي، بما فيه من كتب ربما كان لدي متسع من الوقت الآن لقراءتها، فقد أصبح الموقف مختلفاً نوعاً ما. لقد سمعت كثيراً ورأيت كثيراً. وتكونت لدي آراء وآراء، بعضها مؤقت، والآخر عن اقتناع. فإنني أزعم أني مؤهل للحكم على الأمور بلا تحيّز. والآخرون - من زوايا مختلفة نظروا منها على المشكلة عن قرب - بلا شك - مؤهلون بصورة أفضل مني للكتابة عن حضرموت نفسها. ولن أتجاوز حدودي بقدر كبير للتدخل في مجال عملهم، باستثناء ما قد يكون ضرورياً للتركيز على المشكلة المحلية في نطاق الوضع العربي الأوسع، الذي تنتمي إليه. وسوف أعالج النقاط المختلفة التي برزت لي عندما لاحظتها أو نضجت لديّ أحكام قاطعة عنها أثناء جولاتي، ولكني سوف أضع بين أيدي القراء فوراً سيرة جد مختصرة عن تاريخ حضرموت الحديث، مع ترجمة كاملة للوثائق والمستندات التي يبدو أنها تحدد الوضع السياسي القائم حالياً لهذا البلد وشعبه.

فيما مضى من الزمان، كان هناك البرتغاليون الذين تحكموا في مصائر منطقة حضرموت، من خلال الميناءين الرئيسين في الشحر والمكلا. ويبدو أنهم قد احتلوا أيضاً مواقع قليلة في الأقاليم الداخلية. وكان نصف أهدافهم استعماريًا والنصف الآخر أو ربما النصف الرئيس كان تجارياً. ويوماً بعد يوم زالت قوتهم البحرية:

وانتهت مصلحتهم في حضرموت. والتفاصيل الدقيقة لذلك التاريخ القديم لا تعنيني في قليل أو كثير. ولذلك أتحول فجأة وبصورة عاجلة إلى الموقف منذ حوالي مئة عام مضت، والذي نشأ منه بصورة مباشرة أو غير مباشرة الوضع الحالي للأمور. في ذلك الأوان كان هناك في السلطة أسرة محلية حاكمة من أصل يافعي تُعرف باسم آل كسدي، وكانت تحكم المناطق الساحلية فقط في الشحر والمكلا على الرغم من أنها بلا شك كانت تمارس سلطاتها الواسعة على المناطق الداخلية من الساحل. أمّا الشحر والمكلا فكان يحكمهما على التوالي فرعان مختلفان متنافسان من تلك الأسرة الحاكمة، في حين كان هناك وجهاء إقطاعيون شبه مستقلين مثل العوقلي في السدة، واليطاطي في القُرّة والحدادي في الغيل وآخرون غيرهم بلا ريب في خدمة واحد أو آخر من هؤلاء الحكام -وأحياناً، ربما- لا يخدمون أياً منهم. وفي كل الأحوال كان حاتم الشحر علي ناجي بن بريك، هو الذي يبدو أنه الشخصية المسيطرة في السياسة المحلية. وفي الوقت نفسه شكلت عشائر الكثيري في وادي حضرموت اتحاداً كونفدرالياً مفككاً من الدول الصغيرة المستقلة، والتي كانت قد بدأت في ذلك الوقت تشعر بنفوذ غالب بن محسن من العشيرة المعروفة باسم أهل عبدالله. ولم تكن أسرة القعيطي الحاكمة الآن قد بدأت تأخذ شكلها الحالي بقدر ما يتعلق الأمر بالجزيرة العربية. على الرغم من أن عُمر، وهو الجد الأكبر لكلا السلطانين الحاليين صالح وعلي، كان قد وضع أساس أقدار عائلته في الثروة والسلطة النابعة من مناصبه الموروثة في تلك الولاية الهندية العظيمة التي تدعى حيدرآباد. وكان لعمر أربعة من الأبناء، أرسل منهم ثلاثة الآن مجهزين تجهيزاً كاملاً بالمال الكافي ليشقوا طريقهم بأنفسهم ويتعلموا مهنة لهم في أرض أجدادهم. أما الرابع، ومن الواضح أنه كان أصغرهم ،واسمه صالح، فقد احتفظ به معه ليقتفي أثره ويسير على نهجه. وذهب محمد، وهو الابن الأكبر، إلى وادي حضرموت وحار بالشراء على نواة الأملاك العظيمة في القطن والتي ظلت تحت يد فرعه من الأسرة منذ ذلك الحين يتوارثونها مثل الإقطاعيين.

ويبدو أن صفقته الرابحة قد نالت رضاه، وترك أخاه الثالث، عوضًا، الأكثر نشاطاً، والذي آثره على عبدالله أخيه الكبير الثاني بعده مباشرة، واختاره ليضيف إلى نصيبه أكبر قدر قد يكون ضرورياً، حتى يحقق الطموحات التي أثارت والهم لإرسالهم إلى العالم الخارجي. وبالسيف في أيديهم والجنود المرتزقة في خدمة مواردهم الوفيرة انطلق عبدالله وعوض سعياً وراء المغامرة في حقل عامر بالثمار. وكان الضعف المتزايد لأسرة آل كسادي قد وفر لهما أول فرصة في إحراز نجاح عسكري. وكان آل كثيري لم ينزلوا إلا مؤخراً من الجبال ويكتسحوا الشحر، التي استولوا عليها فعلاً من علي بن ناجي. وفي غضون شهور قليلة تمكن الأخوان القعيطيين من طرد الغاصبين. قام عوض باحتلال الشحر لنفسه، بينما استولى عبدالله على الغيل. وقبل ذلك بزمن طويل كانت أسرة آل كسادي في المكلا تواجه مشاكل أيضاً من أعدائها. وهبَّ عوض لنجدتهم بالمال والرجال. وهكذا تم إنقاذ الدولة، ولكنها لم تستطع أن تسدد الفاتورة التي قدمها منقذها. وتم تقسيم المكلا نفسها إلى قسمين حيث عُرض نصفها على المنقذ عوض، وقبله ليصبح تحت حكمه. ولكن تقسيم المملكة قد أدى إلى حدوث احتكاك بين الملكين الشريكين. وأصبح أول احتكاك فضيحة مدوية، وأفضى وصول سفينة حربية بريطانية إلى تسوية النزاع لصالح الطرف الأقوى. وهكذا أصبح عوض حاكماً على المكلا والشحر، في حين تم نقل آخر ملوك أسرة آل كسادي إلى أفريقيا ليعيش في المنفى هناك. وبمرور الزمن مات عبدالله، وترك الإمارة مقسمة بين حسين ومنصّر، وهما أكبر أولاده. ودب خلاف بينهما ومع عمهما. وبالتالي جاءت سفينة حربية بريطانية ونقلتهما إلى وطن والدهما مرة أخرى في حيدرآباد بالهند. وظل عوض هو الحاكم المهيمن على الساحل بدعم من البريطانيين الذين أيدوه، بينما كان وادي حضرموت قد تُرك ليبقى ميداناً للصراع بين المتنافسين من آل القعيطي وآل الكثيري. وقد ظل هذا الوادي كذلك حتى بعد الحرب العظمى.

وقبل هذا بزمن طويل حدث حادث -على كل حال- ذو أهمية قصوى لما تلاه من تاريخ حضرموت. فقد زاد الاهتمام البريطاني بشؤون جنوب الجزيرة العربية بصورة مطردة منذ احتلال عدن في عام ١٨٣٩م. وكانت محمية عدن قد بدأت تستحوذ على الرعاية البريطانية بصورة متزايدة مثل الذرات التي تلتصق بالنواة الكبرى. وكانت منطقة حضرموت تعاني من القلاقل والاضطرابات، وتنتظر دورها في لسقوط. ولقد رأينا كيف تدخل البريطانيون لصالح عوض ولتخليصه من إزعاج أسرة الكسادي. ولم تأت الفرصة بعد لهم حتى يخلصوه من أولاد أخيه عبدالله. وفي الحقيقة كان عبدالله لا يزال على قيد الحياة، ويعمل بنشاط مع أخيه عوض في وضع أسس دولة المستقبل. ولقد كان عبدالله هو الذي تفاوض ووقع على شهادة التأمين التي أصدرتها بريطانيا العظمى. كان ذلك في عام ١٨٨٨م وفي أول يوم من شهر المحرم. ولا تزال الوثيقة سارية المفعول، ونصها كما يلي:

«انطلاقاً من رغبة الحكومة البريطانية وعبدالله بن عمر بن عوض القعيطي ممثلاً عنه نفسه وعن أخيه عوض بن عمر القعيطي في إقامة وتقوية روابط الأمن والصداقة القائمة بينهما».

«وأن الحكومة الإنجليزية قد عينت الكولونيل آدم جورج فوربس هوق بوظيفة المندوب السامي السياسي في عدن للتوقيع على معاهدة بهذا المعنى».

«وأن المذكور أعلاه الكولونيل آدم جورج فوربس هوق وعبدالله بن عمر بن عوض القعيطي ممثلاً لنفسه وأخيه عوض القعيطي قد اتفقا على توقيع المواد التالية:

١- استجابة لطلب الموقع أدناه عبدالله بن عمر القعيطي ممثلاً لنفسه وأخيه عوض بن عمر القعيطي تتعهد الحكومة البريطانية بإنشاء حماية من حكومة صاحبة الجلالة الملكة الإمبراطورة على المكلا والشحر وملحقاتهما التي تقع تحت حكمهما وداخل نطاق حدودهما.

٢- يوافق المذكور، عبدالله بن عمر بن عوض القعيطي ويعد بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن أخيه عوض بن عمر القعيطي وعن خلفائهم وورثتهم أنهم سوف يمتنعون عن الدخول في أي مراسلات أو اتفاقيات أو معاهدات مع أي شعب أو حكومة أجنبية، ما لم يكن ذلك بعلم وموافقة الحكومة البريطانية، كما أنهم يعون بإفادة المندوب السامي في عدن أو أي موظف بريطاني آخر ينوب عنه فوراً بأي محاولة من أية حكومة أخرى للتدخل في المكلا والشحر وملحقاتهما.

٣- المعاهدة المذكورة أعلاه ستصبح سارية من هذا التاريخ»[١].

هذه هي معاهدة الشحر لعام ١٨٨٨م، والتي تم بها تحديد الوضع السياسي للأقليم المعني بها في جميع الأوقات ومنذ ذلك الحين فيما يتصل بالعالم الخارجي[٢]. والأدهى أن المنطقة الحقيقية والحدود التي نحن بصدد الحديث عنها لم تكن محددة[٣]. فقد كانت المصلحة المشتركة لبريطانيا العظمى وأسرة القعيطي الحاكمة تميل -على كل حال- خلال نصف القرن التالي أي تفسير مصطلح «ملحقاتها» على أوسع نطاق ممكن حتى يشمل أكبر قدر من اختراق الأقاليم. وبصرف النظر عن مشكلة الحدود الكثيري، التي ظلت منذ ذلك الحين شوكة في حلق الطرفين الموقعين على هذه

(١) يلاحظ أن هناك معاهدة أو اتفاقية صداقة بين الطرفين من سنة ١٨٨٢م، ثم عززت بمعاهدة الحماية سنة ١٨٨٨م، وللمزيد عن هذه المعاهدات وغيرها من الملاحق السرية، والعوامل التي أدت إلى عقدها، نظر: بامطرف، في سبيل الحكم (خمسون عاماً من التناحر الذي أدى إلى فرض الحماية البريطانية على حضرموت) دار الحرية، بغداد، ١٩٧٤م، ص١١٢ وما بعدها. وملحق الوثائق ص١٥٧ وما بعدها. (المراجعون).

(٢) كان توقيع هذه المعاهدة متزامناً مع السياسة البريطانية العامة في الخليج وجنوب الجزيرة العربية التي انتهجت فيها بريطانيا خطاً بوضع تلك المناطق تحت الحماية البريطانية وهي ما تعرف بالمعاهدات المانعة أو معاهدات الحماية التي حصرت التعامل الخارجي لدول الحماية مع بريطانيا فقط. (المراجعون).

(٣) يبدو أن مشكلات الحدود كانت عبارة عن قنابل موقوتة أرادت بريطانيا زرعها في جسم الأمة الإسلامية لتقوم بإشعال فتيلها حين تقتضي مصلحتها ذلك وخاصة حين تسعى إلى تطبيق سياسة (فرق تسد) التي نجحت فيها كثيراً في سبيل ضمان مصالحها في المنطقة. (المراجعون).

المعاهدة، فلم يكن لمسألة الحدود أي شأن أكثر من الأهمية الأكاديمية إلى أن برزت حديثاً القوة السعودية في الجزيرة العربية وأثارت المشكلة لأول مرة بصورة واقعية وملموسة. إن نطاق الصحراء الغامض الذي تقع في مكان ما منه الحدود المفهومة بالبديهة بين المملكة العربية السعودية وملحقات المكلا والشحر الخاضعين للحماية البريطانية، والاستكشاف يبين بثبات أكيد هذه المواقع. كما أن النتائج الجغرافية ودراسة الأعراق المنبثقة من رحلتي هذه سوف تحتاج للنظر فيها بعناية فائقة من جميع الأطراف المعنية. ويرجع الأمر لرجال الدولة البريطانيين في البحث عن حل وتقديمه بحيث يكون معقولاً ومقبولاً بصورة أساسية من الناس المعنيين. وسوف نرى قبل نهاية هذا الفصل أن السلطات البريطانية في عدن قد ضربت مثالاً طيباً بحل دعوى تشبه -على الأقل- المطالب الأصلية لإيطاليا في الحبشة. فلا ينبغي لتلك السلطات أن تنسى أن مواطن الخط (Walwals) هذه قد جلبت دموعاً ودماءً، ومهما يكن فإن بريطانيا هي التي قادت بصورة ضعيفة تيار المعارضة لمطامع إيطاليا وأساليبها الاستعمارية. وعليهم أيضاً أن ينظروا ولو لبرهة من الزمن فيما إذا كانت «الحماية» بلا مسؤوليات تتوافق مع مبادئ ومثل العالم المعاصر. إن محمية عدن نفسها عبارة عن شكل غريب -وجدير بالرفض- من أشكال الاستعمار أيام الملكة فكتوريا، وما زال ماثلاً أمام عيوننا. وإنها لتحتاج إلى إصلاح حتى تتماشى مع المفاهيم المعاصرة لمسؤوليات السيادة.

ولكن نعود من هذا الاستطراد إلى حضرموت، فقد استراحت الحكومة البريطانية، بعد أن أغلقت على نحو مرضٍ لها البوابات الجنوبية للجزيرة العربية في وجه الاختراق الأوروبي المنافس لها. وظل عوض، الذي يبدو أنه كان عاهلاً ذا قدرة وتميز فائقين، على قيد الحياة بعد معاهدة عام ١٨٨٨م بحوالي عشرين عاماً. كما لم يجد منافسه الكثيري العظيم غالب بن محسن أي صعوبة في المحافظة على راية عشيرته مرفوعة في المواقع المنعزلة والنائية من وادي حضرموت، ولكن لم يكن باستطاعته أن يؤثر على الأسس الصلبة لقوة عوض على الساحل. وهذا، بضمان ودعم من الحكومة

البريطانية، كان كافياً لتأكيد الوضع الأعلى مقاماً والأرفع منزلة لعرش آل القعيطي دون الاقتراب من الاستقلال المحلي الذي اكتسبه آل الكثيري في منطقتهم هم بمرور الزمن. وحتى هذا اليوم ظل ذلك الأمر -على الرغم من أن الانحرافات والأخطار الحادة في المنطقة الداخلية- هو الصفة الغالبة في سياسة حضرموت. وكانت إمارة آل القعيطي شبه المستقلة في شبام تعترف دائماً بهيمنة المكلا عليها، والتي كانت بالمقابل تحترم الوضع الخاص لسلالة محمد. وعند وفاة هذا المذكور أخيراً، آلت الإمارة إلى ولده صالح، وبعد وفاته في عام ١٩٠٤م خلفه ولده الأكبر محمد، وتلاه بالدور (في عام ١٩٣٦م) أخوه الأصغر علي، الذي كان مضيفي في شبام. والمشكلة الوحيدة في هذا البيت هي البرود الموجود بين ولد محمد الثاني صالح، وعمه الذي يقاربه في السن. وقد انضم صالح في الوقت الحاضر -بعد عودته من إقامته الطويلة في حيدرآباد يلهند إلى أن توفي والده هناك- إلى بلاط سلطان المكلا.

وقد أدت وفاة غالب الكثيري إلى تقسيم عرشه وأملاكه بين ولديه منصور ومحسن، حيث أخذ الأول سيئون والثاني تريم على أنهما نصيبهما من الميراث. وقد أدى هذا التقسيم حتماً إلى إضعاف خطط آل الكثيري، في حين كان الآخر -غالب- الذي خلف والده عوض على العرش قادراً على الاعتماد على القوة الموحدة لعاصر آل القعيطي. وانتقلت المنافسة بين الآباء إلى الأبناء في وقت كانت الحرب العظمى على وشك أن تشجع وتساعد على تدبير المكائد والخداع وإثارة النزاعات. وكانت بريطانيا العظمى أشد انشغالاً في مواقع أخرى حتى إنه لم يكن لديها أدنى فرصة لتزعج نفسها بالفوضى المحلية. وقد كانت -حقيقة- لا تسمح لتلك الفوضى أن تقض مضجعها كثيراً عندما تكون أقل انشغالاً، وإنه لمن الحقيقة الساطعة والجديرة بالملاحظة أن نذكر أنه خلال الأربعين[1] عاماً التي تلت توقيع معاهدة الشحر

(١) كذا في الأصل (أربعين عاماً) ويبدو أن المقصود خلال الثلاثين عاماً كما حددها المؤلف بعد ذلك بالفترة ما بين (١٨٨٨-١٩١٨م). (المراجعون).

(١٨٨٨-١٩١٨م) لم يتجشم أي مسؤول بريطاني واحد عناء زيارة وادي حضرموت. كما أنه في غضون الفترة نفسها لم يزر أي رحالة بريطاني تلك البلد سوى السيد والسيدة ثيودور بنت، يرافقهما مساح هندي، في عام ١٨٩٣م. وهي أيضاً السنة نفسها التي شهدت زيارة المستكشف النمساوي ليو هيرش. ولم يذهب هذا الأخير أبعد من قرية الحزم، أما أسرة بنت فلم تتجاوز شبام. وليس هناك حاجة ضرورية كبرى لإبداء الملاحظات والتعليق على مثل هذا الوضع للأمور. فقد كانت القوة «الحامية» لا تعلم ولا تريد أن تعلم ما يجري في المناطق الداخلية.

وعلى كل حال -وخلال الحرب- أصبحت عدن وما جاورها التفاحة الحقيقية التي تتنازع عليها الإدارات المختلفة في الحكومة البريطانية، حيث كان مكتب الهند و«وزارة الخارجية» و«وزارة المستعمرات»، ناهيك عن «الجيش» و «الأسطول» في أيام ما بعد الحرب. و «القوات الجوية» كلها تتشاحن فيما بينها وتناضل للحصول على السيطرة العليا. بل إن جزءاً من المحمية كان يتمتع بمنزلة فريدة على أنه الجزء الوحيد من الإمبراطورية البريطانية الواقع تحت احتلال العدو.

ومع ذلك -وفي خضم هذه الفوضى- بدأ ضوء خافت من الاهتمام بشؤون حضرموت يظهر شيئاً فشيئاً في الخطط البريطانية؛ لأن كل فرد كان يعلم على العكس أن المنطقة الداخلية ربما كانت تعج بمناجم الذهب والبترول والإمكانيات الزراعية. وكانت تنمية موارد الإمبراطورية هي حديث الساعة. وهكذا في عامي ١٩١٨ و١٩١٩م، وأخيراً جاء إلى حضرموت اثنان من المسؤولين البريطانيين من ذوي الكفاءة المعترف بها في المهام الموكلة إليهما. فقد وصل السيد لي وارنر -الذي توفي مؤخراً- من هيئة «مستعمرات المضايق» لإجراء فحص عام للظروف السياسية والاقتصادية والزراعية في وادي حضرموت. وكان تقريره المثير بشدة للاهتمام قد طبع كما ينبغي كوثيقة إدارية سرية، ولم يصل أبداً إلى دائرة القراء الأكثر اتساعاً والتي يجدر بها أن تطلع عليه. وكان السيد ليتل، من «إدارة العلوم الطبيعية المصرية»، عالماً في

الجيولوجيا، ولا يزال تقريره المنشور يعد العمل القياسي عن جيولوجيا حضرموت. ولسوء الحظ لم يتغلغل في الوادي العظيم نفسه، والذي كانت حافته الجنوبية تقريباً آخر حدود دراساته. وفي هذه المرحلة، وفي ذلك الوقت، كانت معرفة العالم بحضرموت تعتمد على الوصف الذي نشره هؤلاء الأفراد الستة المذكورون أعلاه بالاسم، علاوة على وصف كان قد نشره رحالة قديم يدعى أدولف فون ريد وهكذا تمكن سبعة فقط من الأوربيين من زيارة بلد ظل خاضعاً «للحماية» البريطانية ما يربو على أربعين عاماً.

ولم تستطع الحكومة البريطانية أن تجد سبباً يرضيها أو يسرها في نتائج أربعة عقود من حمايتها للوادي. وعلى كل حال، فقد أثارت فعلاً همتها الآن لتساهم في رعاية شعب الوادي ورفاهيته، وفي أثناء تنفيذ ذلك فقد أعدت نظرية مثيرة للتساؤل بقدر ما، مؤداها أن المنطقة الداخلية كانت بالضرورة ملحقات طبيعية لموانيها. ولقد كانت هذه نظرية ملائمة، على الرغم من أنها تتعارض تماماً مع الحقائق الاقتصادية. ولا يمكن أن توجد الموانى بصورة عامة إلا لتغذية المناطق الداخلية ،فتلك جدة والحديدة وبورسودان وغيرها على سبيل المثال، وهكذا كان الحال-في الحقيقة- مع الشحر والمكلا. ومهما يكن من أمر فلم تكن هذه النظرية قد اقترحت فقط، بل تم تنفيذها فعلاً، وبُذلت محاولة لتسوية النزاع القديم بين آل القعيطي والكثيري كما ينبغي. ونتيجة لتلك المحاولة تم إعداد معاهدة أمن وصداقة دائمة والتوقيع عليها بين الطرفين في ٢٧ شعبان ١٣٣٦هجرية (١٩١٨ ميلادية) بالشروط التالية:

«بسم الله الرحمن الرحيم، وبعد، قال الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ..﴾[1]. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[2].

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠ .

(٢) سورة الحج، الآية: ٤١ .

«ونحن -والحمد لله- نؤمن بالله ونتبع سنة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- ونؤمن بوحدة العمل الذي قد يجلب النفع للمسلمين والرخاء للشعب والوطن، ونرغب فيما قد يهب الناس الأمن والهدوء والتقدم داخل وخارج الوطن، ولذلك قامت الحكومتان الكريمتان للقعيطي وأهل عبدالله بإعداد معاهدة فيما بينهما إلى الأبد حتى يصير الغراب الأسود أبيض وتهلك الأرض.

«فليعلم السلطان السيد غالب بن عوض بن عمر، وعمر بن عوض بن عمر القعيطي بالأصالة عن أنفسهم ونيابة عن ورثتهم وخلفائهم وكفلائهم كطرف أول، والسلطانين منصور بن غالب ومحسن بن غالب من آل عبدالله بالأصالة عن أنفسهم ونيابة عن ورثتهم وخلفائهم وكفلائهم كطرف آخر، والذين اتفقوا جميعاً على الشروط التالية:

١- يوافق السلطان القعيطي، حاكم الشحر والمكلا، وسلطانا آل عبدالله من آل كثير على أن منطقة حضرموت من الملحقات التابعة للحكومة البريطانية والخاضعة لسلطان الشحر والمكلا.

٢- يقر السلطان القعيطي، حاكم الشحر والمكلا، بأن سلطاني آل عبدالله هما سلطانا آل شنافر وأن آل عبدالله هم الحكام في حضرموت على مدن وقرى سيئون وتريم وتريس والغرف ومريمة والغيل. ومن المعترف به أن عشائر الشنافر المذكورة فيما أدناه من رعايا سلاطين آل عبدالله، وهم بالتحديد آل عَمْرو، وعشائر آل كثير وآل عوامر وآل باجري وكل ما تضمه حدودهم المعلومة والمشهورة.

٣- السلطان القعيطي، حاكم الشحر والمكلا، نيابة عن نفسه وخلفائه كطرف أول يقر بنفسه أنه يقبل ويعترف بحقوق وسيادة سلاطين آل عبدالله وورثتهم وخلفائهم في تلك المدن والقرى المذكورة، وعلى عشائر الشنافر

المذكورين في الشرط الثاني أعلاه، ويتعهد بعدم التدخل معهم مطلقاً في أي أمر مهما كان، ويعترف بأنهم سلاطين مستقلون في مناطقهم كما هو محدد في الشرط الثاني.

٤- يوافق سلاطين آل عبدالله نيابة عن أنفسهم وورثتهم وخلفائهم كطرف آخر على أنهم لن يتدخلوا بأي طريقة مهما كانت في حكم حضرموت علاوة على المدن والقرى الواردة في الشرط الثاني، وأيضاً العشائر المحددة في الشرط المذكور، ويوافقون ويقرون بأنهم ليس لهم أي حق في التدخل بالمراكز المحلية الأخرى.

٥- يقر سلاطين آل عبدالله بأنهم يقبلون المعاهدة المبرمة بين الحكومة البريطانية وحكومة آل القعيطي في عام ١٨٨٨م على أنها ملزمة لهم كما لو كانوا قد وقعوا عليها، ويقرون بأنهم سوف يلتزمون بإخلاص بشروطها: ويوافقون أيضاً على أن جميع تعاملاتهم ومراسلاتهم مع الحكومة البريطانية ستكون عن طريق السلطان القعيطي، حاكم الشحر والمكلا.

٦- يوافق الطرفان على أنهم سوف يضعون فوراً نهاية للقلاقل الحالية والمقلة: ويوافقون على نسيان الماضي كله والعفو عنه، ولن يقوم أي منهما بالانتقام أو المطالبة بأي دعوى ترتبط به، ويوافقون على المحافظة على الأمن على الطرق في المستقبل داخل حدودهم المعروفة، وأن يقيموا العدل طبقاً للشرع، وأن يوقروا السادة العلويين ويساعدوا المظلومين ويرسوا دعائم العدالة العامة داخل حدودهم المعروفة.

٧- توافق الأطراف المذكورة على مساعدة بعضها البعض إذا وقع بلاء أو حدثت مشكلة من أي من الجانبين لرعاياهم وأصدقائهم والتابعين لهم أو للأشراف أو المسافرين أو الضعفاء، ويوافقون على أنهم سوف يحمون

أرواح وممتلكات التابعين لهم ورعاياهم ومن تحت حمايتهم ما داموا يتعاملون معهم أيضاً بالعدل والإنسانية ومع باقي أصدقائهم.

٨- توافق الأطراف المذكورة أعلاه على أنه ستكون هناك حرية كاملة للتجارة، وأن الرسوم سيتم فرضها بالتعرفة والأسعار نفسها على جميع الأشخاص بالتساوي، سواء كانوا رعايا أيٍّ من السلطانين المذكورين أعلاه.

٩- إذا أراد أي سلطان من المذكورين أعلاه أن يزور الآخر فمن الضروري له أن يخطره بنيته تلك حتى يمكن اتخاذ الترتيبات اللازمة لاستقباله بما ينبغي من احترام، ولا يجوز في أي ظرف مهما كان أن يزيد عدد القوات (المرافقة له) عن خمسين، حتى يمكن تفادي وقوع اضطراب أو مشاكل بين القوات المختلفة.

١٠- يوافق سلاطين القعيطي وسلاطين آل كثير بصورة متبادلة على مساعدة بعضهم البعض حسب قدرتهم وطاقتهم في أي خطة لتحسين الظروف في حضرموت ولتقدمها.

١١- نظير قبول الشروط السابقة من قبل سلطان الشحر والمكلا وسلاطين آل كثير من أهل عبدالله سوف تسعى الحكومة البريطانية إلى تسوية وإنهاء جميع النزاعات التي قد تنشأ في المستقبل بين المذكورين أعلاه بعد تاريخ هذه المعاهدة بالتحكيم من خلال المندوب السامي في عدن»[1].

وقد يستطيع أحد المحامين أو المشتغلين بالقانون أن يكتشف بسهولة الثغرات الموجودة في نصوص هذه الاتفاقية، في حين سوف يكتشف القارئ العادي الذي يقرؤها عن غير قصد أن بها إمكانيات ظاهرة جلياً لسوء الفهم والخلاف. ولقد كان

(١) انظر نص هذه المعاهدة وغيرها من المعاهدات التي تلتها -وكان الهدف منها إصلاح الأوضاع المختلفة في حضرموت وتوحيد قوة الدولتين القعيطية والكثيرية- لدى: القعيطي: السلطان غالب بن عوض، تأملات عن تاريخ حضرموت، ص١٣٦-١٤٤، مكتبة كنوز المعرفة، جدة ١٤١٨هـ. (المراجعون).

السيد لي وارنر شديد الصراحة في انتقاده لها حيث قال إنها ليس لها أي فائدة سياسية من الناحية العملية نظراً لأنها لم تقدم أي ضمانات قيِّمة. وعلى العموم فالغرض والأثر العملي لهذه الوثيقة واضحان بما فيه الكفاية، ويمكننا أن نسلم عن طيب خاطر بأن منطقة حضرموت ككل قد استفادت فائدة عظيمة من سد الثغرة الرئيسة في دفاعاتها ضد الفوضى والاضطراب. فقد تبدل التنافس القديم بين غالب الكثيري وعوض، وبين أولاد الأول وغالب القعيطي، بالعلاقات الحالية المرضية نسبياً بين هاتين الأسرتين الحاكمتين، بناءً على بيان مواقفهم النسبية التي لا تنطوي على سوء فهم حقيقي، وتشترط التحكيم البريطاني في حالة نشوء أي نزاع.

وكان العنصر القعيطي بالطبع هو الذي ربح كثيراً من التسوية، وكان ذلك بمثابة مكافأة ملائمة لجيلين اثنين من الإدارة الحازمة وغير الظالمة تحت حكمهم. ومن ناحية أخرى كان آل الكثيري ،على الرغم من شكواهم الضئيلة التي أشرنا إليها من قبل، قد نالوا أيضاً مميزات غير قليلة من الاتفاق النهائي مع خصومهم القدامى. أما الطرف الثالث... أي الحكومة البريطانية (التي سماها الكاتب tertius gudens) فلم تكن طرفاً حقيقياً في هذه الاتفاقية، ولم توقع عليها أيضاً فيما يبدو بوضوح ،ولذلك يجوز لها في هذه الحالة أن تتمتع بحق وتسعد بدورها الخيِّر الذي أدته كصانع للسلام بين عدوين قديمين وبالنجاح الذي صاحب وسيلة فجة وغير بارعة لمنح أوسع تفسير إقليمي ممكن للنص غير المرضي على الإطلاق لمعاهدة ١٨٨٨م. والآن لا يمكن أن يكون هناك أدنى شك مهما كان في أن إقليم سلاطين آل كثير، المحدد بالتفصيل في هذه المعاهدة، ومنطقة آل القعيطي، يشكلان معاً محمية بريطانية والذبابة الوحيد في هذه المراهم (أي العيب الوحيد في هذه الاتفاقية) هي الحقيقة المثيرة للدهشة والاستغراب من أن المعاهدة لم تُوقَّع، ولم يتم التفاوض في الحقيقة عليها بمواقفة سلطاني آل كثير الاثنين، منصور ومحسن، اللذين لم يكونا في عدن، حيث ترأس

المندوب السامي البريطاني المفاوضات. ويزعم أولادهما أن أختامهما التي تم وضعها لاحقاً على الوثيقة لم تكن إلا إذعاناً للقضاء والقدر[1].

إن هذا الوضع في الأمور ،وربما يجدر بنا أن نسميه تسوية النزاع القعيطي، الكثيري، قد أثمر بالفعل نتيجة طيبة واحدة ذات أهمية كبرى على الأرجح. فإذا ذهب زائر لحضرموت، وكان على دراية بالمناطق الأخرى من الجزيرة العربية، لن يكون بوسعه بالتأكيد إلا أن يُصدم بحقيقة أنه في ذلك الوادي الخصب الواسع -الذي يمتد إلى مئة ميل أو أكثر من أقصاه إلى أقصاه- لا يوجد إلا ما يكاد يصل إلى عشرة بالمئة فقط، وربما لايزيد عن خمسة بالمئة، من النخيل الذي قد يبلغ عمره عشرين عاماً. ويستطيع المرء بصورة تقريبية أن يقدر عمر غالبية بساتين النخيل بأنه يتراوح بين عشرة إلى خمسة عشر عاماً. فالجذوع الطويلة الموجودة في نجد والتي تشكل غابات حقيقية بكل ما في الكلمة من معنى يندر وجودها هنا حتى إنه يصعب ملاحظتها بدرجة كافية، وإن وجدت فإنها تكون بصورة عامة في مجموعات صغيرة، ولا تشكل بساتين حقيقية إلا أحياناً. هذه السمة السائدة في الوادي قد قُدِّم تفسيرها لي بطرق مختلفة، فلقد قال بعضهم إن النخيل لا تنمو إلى ارتفاع عظيم في حضرموت، ولكن تكذبهم النسبة المئوية الصغيرة لهذا النوع من النخيل الذي يراه المرء فعلاً، ويقول آخرون: إن النخيل لا تعمر طويلاً في حضرموت مثلما تعمر في أماكن أخرى، وآخرون -بقدر كبير من التعقل- ينسبون هذا الوضع إلى القلق المزمن الذي ينتج عنه نغماس مفرط في التدمير على فترات دورية، ومع ذلك يلقي آخرون باللوم على أوضاع الحرب أو الحصار المزمنة والتي تمنع حفر الآبار وصيانتها. وفي رأيي يجب أن

(١) رغم أن المؤلف بريطاني وسبق له أن كان من رجال الإدارة البريطانية إلا أنه يلمح هنا إلى شيء من الممارسات الاستعمارية البريطانية وطريقتها في صياغة المعاهدات بينها وبين البلدان المستعمرة أو بين البلدان المستعمرة بعضها البعض. تلك الصياغات التي تضمن لبريطانيا حقوقها كاملة ولا تلزمها في الغالب بأية التزامات قانونية. (المراجعون).

نسعى للتفسير الحقيقي في السببين الأخيرين، والسبب الثالث أشد أهمية من كليهما. ففي الماضي عانت النخيل أشد المعاناة على أيدي الأعداء، وكانت تتحرق شوقاً للري، الذي كان يتم تبديله على فترات فاصلة لتعرضه لنفس التقلبات في حينه. ولا يستلزم الأمر قدحاً لزناد الفكر حتى نقبل في حالة أية منطقة معينة بنظرية وجود دورة من القلق والاضطراب فيها تمتد لمدة عشرين أو خمسة وعشرين سنة، ولكن جزءاً ضخماً جداً من إجمالي المساحة المخصصة للنخيل اليوم قد تمّ زراعتها في الآونة الأخيرة نسبياً حتى إن المرء يستطيع بناءً على هاتين النظريتين أن يفترض وجود فترة مليئة بمحن الحرب وكوارث السلب والنهب منذ حوالي عشرين عاماً مضت. ونجد في الحقيقة عكس ذلك ،حيث وجدنا المفاوضات الودية لبث السلام الأبدي. وإلى هذا السلام يدين وادي حضرموت بفضل زراعة مساحات شاسعة كانت قد تركت مهجورة من قبل نتيجة الفوضى السائدة. ولنبتهل إلى المولى تبارك وتعالى أن تكبر الجذوع التي ما زالت صغيرة حتى تصل إلى هامة العمالقة!!! والقصة نفسها ترويها لنا زراعات الفِطْر (التي تسمى بالعَامِيَّة الفقع أو الكمأة) في مدن المزارع، مع بيوتها الريفية وفيلاتها وبساتينها، والقصة نفسها، مرة أخرى، تحكيها لنا المساحات الواسعة المتوافرة الآن لزراعة القمح والدُخْن.

إن قيمة الأرض -لا سيما عند قربها الشديد من المدن- مرتفعة. وعلى سبيل المثال تصل قيمة أرض زراعية عادية ذات جودة متوسطة في منطقة شبام إلى مبلغ ٥ أو ٦ ريالات للمطيرة التي تبلغ مساحتها حوالي ستة وثلاثين ياردة مربعة، وفي وادي ابن علي يتراوح السعر من ٧ إلى ١٠ ريالات. ولكن -على أي حال- في المناطق المجاورة مباشرة لشبام يرتفع السعر إلى أن يصل مبلغاً يتراوح بين ٢٥ إلى ٤٠ ريالاً. وفي المكلا ،لأسباب اقتصادية بحتة، البيت الذي قد يُؤجر بسهولة بمبلغ ٢٠٠ جنيه إسترليني، في جدة لا يدر إيجاراً سنوياً إلا في حدود ٢٠ ريالاً فقط. وليس هناك من شك في أن تسوية الخلاف في حضرموت بين آل القعيطي والكثيري عام ١٩١٨م قد

بشَّر بميلاد عهد جديد من الازدهار الاقتصادي المحتمل. وكانت سرعة التقدم فيما تلا ذلك بطيئة بصورة مخيبة للآمال.

ولم أتمالك نفسي من الشعور بالأسى قليلاً، إشفاقاً على علي بن منصور، حيث قمت، بعد السادسة صباحاً مباشرة بقيادة السيارة متجهاً نحو تريم، وأنا أتأمل في عبء مصيبته. وقد شعرت في ذلك الوقت، وما زلت أشعر بما يلي: أولاً: إن تسوية عام ١٩١٨م قد عكست بدقة تقريباً الموقف الحقيقي النسبي لأطرافها في ذلك الوقت، وثانياً: إن حضرموت مثل الجزيرة العربية ككل، لا تزال بحاجة إلى قدر أكبر من التوحيد إن كُتب لها البقاء والازدهار في ظل الظروف المعاصرة. وعلى كل حال فقد مضى مؤلفو هذه المعاهدة، غالب وعمر من ناحية ومنصور ومحسن من ناحية أخرى الآن كلهم إلى قبورهم، بعد أن رأوا بعض ثمار مسعاهم. وأولادهم الذين ترعرعوا في عبق هذا الجو الجديد من الود والارتياح، لا يمكنهم بصورة معقولة أن يطعنوا في حكمة أسلافهم. وباستطاعتهم أن يتعاونوا معاً ليلموا شتات شعوبهم التي سادها التفرق الشديد في بلدهم وينسجوهم مرة أخرى في التصميم الأصلي الذي أراده صانعو المعاهدة. وإذا لم تبرز بعض الشخصيات المسيطرة على الساحة بعد هذا الوقت لتقلب التوازن القائم، فيبدو لي أن العنصر الكثيري سوف يصبح يوماً ما أكثر بقليل من خميرة في وسط الأكثرية القعيطية.

وعند الثامنة صباحاً كنت أمر عبر بوابة تريم. وبعد بعض التجول غير لضروري بين المدينة وعيديد اتجهنا في نهاية الأمر نحو بيت الأخوين عبدالقادر (سعيد) ومحمد، أولاد حسين بن الشيخ آل الكاف. وكان البيت أحد المباني الأولى من العهد الجديد، فقد كان مسكناً فخماً كالقصر على طراز المباني في سنغافورة وجزر الهند الهولندية، ويقع بالقرب من الطرف الشرقي للمدينة. وكان عتيقاً بقدر قليل في التصميم العام، مع حمام السباحة في فناء البيت، ولكن تجهيزات دورة المياه

والاستحمام كانت نظيفة وصحية. وبصورة حتمية يتعذر اجتنابها اجتمع حشد مائل من آل الكاف وآخرين، بما فيهم السلطان عبدالله، واندفعوا بأعداد ضخمة إلى البيت تشدهم الجاذبية التي لا تُقاوم الناتجة عن وجود زائر جديد. إن مأساة هؤلاء النقوم الأغنياء أنهم -في ظروف حياتهم- ليس لديهم عمل يفعلونه قد يبقيهم مشغولين طول اليوم. ومما يبعث السرور بدرجة كافية -ولكن ذلك ليس مريحاً جداً- أن حياتهم تمضي في التلكؤ والثرثرة والترفيه. وربما يكون عندهم أحياناً عمل ولكنه يكون بصورة عرضية ولا ينال تركيزهم واهتمامهم.

وكان واحد من الجماعة التي احتشدت هنا اليوم لم أره من قبل، وقد كان رجلاً مسناً ذابلاً تبدو على وجهه علامات المكر والخداع، وقد قدرت من منظره أن سماً زعافاً يجري في عروقه. وكانوا في هينن قد أخبروني أن سيداً من قرية بور في وادي عدم قد جاء منذ زمن مضى إلى أرض نهد ليعقد صلحاً بين عشيرتي آل حكمان وآل ثابت اللتين كانتا ولا تزالان تتحاربان. وقد نجح بالعسل على طرف لسانه والسم في قلبه في أن يجعل الصلح مستحيلاً. وكان هذا هو الرجل الذي يجلس الآن بجواري، واسمه السيد عيدروس، يصب في أذني بلسان ذرب الحكاية الطويلة لكوارث ومصائب الحضارمة والتي لا يمكن علاجها إلا بتدخل يد قوية.

وابن سعود فقط هو الذي يستطيع علاج علل حضرموت. ولقد حاول السادة، وهو نفسه منهم، رأب الصدع ولكن دون جدوى لأنه لم تكن هناك حكومة تستحق هذه التسمية في حضرموت. يجب أن يتدخل ابن سعود حتماً، ويمكنه الاعتماد على النفوذ الكامل للسادة. ثم بصوت عال تحدث أحد الرجال الأصغر سناً من الأول بين الحاضرين بكلمات مجنحة أدهشتني كثيراً بقدر ما أسعدتني حيث قال: «من أنت حتى تتكلم؟ أليس معروفاً في جميع أنحاء المنطقة أنك -أنت وحدك- بجهودك في الصلح، الذي صنعت الخلاف الحالي بين النهد؟ ولولاك لكانوا في أمن منذ أمد بعيد» وقد بلغ

السيل الزبى وتوجهت أنظار جماعة الحاضرين لي ضارعة كما لو كانوا يطلبون العفو عن إزعاج السيد وإلحاحه. ولكن السيد، على كل حال، كان يسعى إلى أن يوقعني في مصدة لأتفوه بكلمات طائشة. ولذلك واصل قائلاً: «انظر إلى تريم وانظر إلى قرية بدو هذه عبر الوادي، لا تبعد إلا عشر دقائق على الأقدام. لماذا!! لا يوجد أحد من السادة هنا. ولا فرد واحد من تريم يُظهر نفسه في العراء هناك. ليس لدينا أمن، ويعلم الله أننا بحاجة إليه».

ولم يكن بالإمكان التخلص من الرجل، وعلى أي حال فقد استطعت أن أرد عليه بصراحة وصدق وبطريقة نالت القبول بوضوح، حيث أجبته قائلاً: «أنت تطلب ابن سعود، ليمنحكم الأمن. إن ابن سعود -وهذه حقيقة- قد نشر نعمة الأمن في كافة ربوع بلاده حتى أقصى حدودها. انظر لحالتي. لقد خرجت منها لتوي سالماً، من سوريا إلى حضرموت، وفي طول رحلتي لم أسمع طلقة رصاص واحدة حتى وصلت أول قرية في بلدكم. كما أن ابن سعود -وهذه حقيقة- يرغب أن يرى العرب في كل مكان ينعمون بالأمن، والرخاء، والاستقلال. ولكن بالنسبة للتدخل في شؤون الحكومات التي تجاوره، فذلك أبعد ما يكون جداً عن تفكيره. ولا يشتهي بوصة واحدة من أراضيها. فهو بالتأكيد لا يطمع في بلدكم حضرموت ولا في أي أراض أخرى. وبالنسبة للأمن فأنتم وحكوماتكم تملكونه بأيديكم أنفسكم حتى تسعون إليه وترسون دعائمه. وعليكم أولاً أن ترغبوا الأمن إذا كنتم تريدون تحقيقه، لأن (الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)».

وقد جاء غداء «جاوي» فاخرٌ ووضع نهاية للنقاش، وبعد نوم القيلولة المطوب، ذهبت للتجول بالسيارة مع مضيفي، وقد مررنا أولاً بعيديد حتى وصلنا إلى المسجد الأبيض الصغير في أعلى الوادي، حيث يستطيع المتنزهون في المساء أن يتوقفوا هناك لأداء صلاة المغرب، وبعد ذلك عدنا خلال المدينة وخرجنا إلى قرية

دمون، وكانت بالأحرى مستوطنة متسخة قليلاً. وفي طريق عودتنا عرجنا على السلطان عبدالله لزيارته في بيته الثاني قرب بوابة دمون، وبعد صلاة العشاء وشرب الشاي رجعنا للبيت لتناول العشاء. ثم تفرقت الجماعة: وتركوني وحدي على شرفة بالسطح لأنام عندما أريد. وهنا لاحظت لأول مرة في حضرموت وجود البعوض، الذي يعود بلاشك لوجود بركة استحمام في البيت.

ولا يبدو أن الملاريا شائعة في هذا الوادي. كما كانت بالتأكيد شائعة في شحران وأودية الحجاز. والصحة العامة لهذا البلد أعلى بوضوح من المعدل العام الشائع في الجزيرة العربية كما أن الجلد الناعم المكتنز والأجسام الرشيقة النحيلة للناس، سواء الرجال أو النساء، يبدو أنها تدل على مناخ صحي. والطبيب الهندي الذي كنت توظفه سابقاً أسرة آل الكاف في تريم لم يعد هنا، وربما شغل مكانه على الأرجح صيدلي من جاوة. وفي الشحر أيضاً صيدلي آخر مسؤول عن مستشفى صغير، وكان هو الذي اعتنى بصحة فريا ستارك خلال مرضها الخطير في شبام. ولقد كان فخوراً للغاية بالشهادة التي منحته إياها مريضته، ويأمل أن تحوز له يوماً ما على وظيفة في مكان آخر غير الشحر. وفي المناطق الداخلية ينظرون إلى التعليم على أنه أكثر أهمية من الطب، ولكن كليهما متروكان لمشاريع أسرة آل الكاف، التي تدرج بين أنشطتها أيضاً تسجيل وترقيم السيارات. ومعظم هذه السيارات تنتمي -في الحقيقة- لأفراد مختلفين من الأسرة، والتي أصدرت أيضاً عملة محلية من قطع النيكل المعدنية سد الفجوة التي يشعرون بها كثيراً بين نصف البنس الجاوي والدولار النمساوي، الذي يعد المعيار للقيم المحلية في جميع أرجاء النصف الجنوبي من الجزيرة العربية. وعلى الساحل تتداول الروبية الهندية وكسورها أيضاً.

ومن الإسهامات النبيلة الأخرى لأسرة آل الكاف نحو رخاء وازدهار أرض وطنها شق طريق للسيارات من تريم إلى الشحر، الذي سوف أقود سيارتي عليه الآن. وكانت الساعة لم تكد تبلغ السابعة صباحاً (في يوم ٢٧ أغسطس) عندما

غادرت بيت عبدالقادر ومررت من خلال بوابة الشحر لعبور الوادي. وعند قناة المسيلة قرب أسفل الطريق المتعرج الصاعد إلى الجرف حتى مستوى الهضبة، توقفنا لنسحب ماءً لرحلتنا الطويلة. وكان لدينا سيارتان، واحدة سيارتي الخاصة والأخرى من طراز بيوك وضعتها أسرة الكاف تحت تصرفي، وبالإضافة إلى محمد، السائق، وأنا، كانت الجماعة تضم مرشدين اثنين من عشيرة آل جابر وكاتباً يعمل لدى آل الكاف كان عائداً إلى الساحل، وسائقًا. والطريق الصاعد من الوادي إلى حافة الهضبة مشهور باسم «عقة باعشمين». وينسب إنشاؤها إلى مهندس محلي يتفاخر بلقبه الغريب المستعار الذي يكنى به وهو «الإنجليزي». ولم يستخدم الطريق أحد منذ أن سافر عليه إخوان آل الكاف منذ ثلاثة أشهر مضت في طريقهم إلى مصر. فمنذ ذلك الحين هطلت كمية طيبة من الأمطار، ويبدو أنه لا يعلم أحد ما إذا كنا نستطيع أن نقدر بثقة على الوصول إلى جهتنا المقصودة. إن كل شيء سيكون على ما يرام إذا لم تكن الأمطار قد جرفت الطريق ومحته من الوجود، وسوف تكون تجربتنا مفيدة لإخوان آل الكاف، الذين يُتوقع عودتهم بعد فترة قصيرة إلى الشحر.

وكان الطريق الصاعد للجرف حاداً بما فيه الكفاية على وجه التأكيد. ولذلك فقد آثرت أن أصعد سيراً على القدمين، ولقد واجهت كلتا السيارتين بعض الصعوبة عند المنعطفات المنحدرة الحادة. ولكن كلتيهما -على أي حال- وصلتا بسلام إلى القمة، ومن واجبي أن أقول إن الطريق كان تحفة رائعة في مجال إنشاءات الطرق، ويضيف قدراً عظيماً من الفخر والفضل للمهندس المسؤول عنه. فدرجات الميل والانحدار، على الرغم من أنها مازالت منحدرة بشدة، كانت معتدلة بأقصى ما تستطيع العبقرية البشرية إبداعه. وكان سطح الطريق ممتازاً. ولا يمكن تفادي المنعطفات الحادة إلا بشق الأنفس. ومع ذلك كان المشي ساراً ولطيفاً أكثر من ركوب السيارة. وفي القمة ألقينا نظرة رائعة على تريم والوادي في الأسفل من ارتفع حوالي ٧٠٠ قدم.

والهضبة في هذه النقطة تشكل لساناً ضيقاً ولكنه يتسع أكثر فأكثر بين الوادي الرئيس عن يسارنا ودلتا وادي عدم عن يميننا. ويسير طريق السيارات في البداية نحو اتجاه جنوبي، شرقي على طول سفح رف بارتفاع ٢٠٠ قدم إلى الغرب، ويطل على وادي عدم. وعلى كلا جانبي الممر الضيق الذي يمتد فيه الطريق توجد شقوق عميقة مفتوحة على الأودية. وقد تركت قيادة السيارة لسائقي حتى أتفرغ لكتابة الملاحظات والمذكرات بدون تعطيل، وكم كنت سعيداً لأنني لم أكن أقود السيارة. وصعدنا وهبطنا في طريق متعرج لا ينتهي، حيث كنا نرتفع إلى حوالي ١٠٠ قدم وتهبط بالقدر نفسه، مرة بعد مرة، والآن نسيرعلى طول منحدر من الصخور المفككة، والآن فوق سهل جيري منبسط، ويتناثر هنا وهناك ممر ضيق تماماً بين الشقوق المنفرجة على كلا الجانبين. بيد أننا كلما تقدمنا كانت الهضبة تتسع أمامنا وتصبح أماكن المرور الخطر أقل تكراراً. وهكذا انطلقنا بالسيارة بسرعة ثابتة على أرض غير ذات زرع، وسطحها مفكك، وفي سهل جيري لا أثر فيه لأي نباتات.

وبعد حوالي خمسة عشر ميلاً مررنا برأس شعيب غاتر، وهو صدع عميق ينحدر لأسفل، والذي قالوا عنه إنه يؤدي إلى ممر النبي هود. ودرب القوافل إلى عينات من وادي عدم يعبر طريقنا عند هذه النقطة، حيث كانت الهضبة أمامنا مكشوفة للرؤية بوضوح حتى مسافة هائلة في جميع الجوانب، مع انتشار واسع للتلال وسلاسل الجبال المنخفضة وشريط طريق السيارات يلتف معها أو بينها على الأرض المنبسطة. وهنا وهناك تقف شجيرات قليلة، ذابلة على وشك الموت، ذات جذوع سميكة، وقد توقفت عن النمو، وهي تتشبث بصورة بائسة بشفاه الصخور المشققة والمنحدرات الصخرية في الأودية الضيقة المكونة بين الشقوق على هذا الجانب أو ذاك. وقد كنا نصعد إلى أعلى دون أن ندري، وعلى بعد حوالي أربعين ميلاً من العقبة وأعلى منها بحوالي ٦٠٠ قدم، أتينا فجأة على رقعة طيبة من الخضرة النباتية حول حافة صدع عظيم يهبط نحو وادي عدم، وكانت تلك الخضرة تتكون من أشجار

وشجيرات صغيرة خضراء. ووراء هذه النقطة كانت الخضرة المماثلة تتناثر في الهضبة، حيث توجد أحد البقع الوفيرة النماء بالنباتات وشجيرات السنط في ريعان توردها بالأزهار على رأس صدع آخر. وكنا نقترب بوضوح من منطقة هطل بها المطر مؤخراً، وسرعان ما وصلنا إلى واد عامر بالشجيرات، يدعى رؤوس الشاة أو قرون الغنم والذي يتدفق إلى أسفل حتى القرية الصحراوية المسماة غيل ابن يمين نحو الشرق. وكانت دروب القوافل، التي تسير في الاتجاه نفسه، قد تركت أثراً عميقاً من سيرها في قاع الوادي. وتوجد هنا وهناك حظيرة خراف مطوّقة بحزام صخري لتروي قصتها عن الرعاة الذين كانوا يحرسون قطعانهم بالليل. وطفر زوج من الغزلان مبتعدين عن مرعاهم بين الأعشاب الصغيرة الغضة على ضجيج اقترابنا منهم. وعن رأس الوادي نزلنا إلى وهد «حصن الخرْب» الضيق الذي يهبط أمامنا بين سلاسل الجبال حتى وادي حرو وهو شريط واسع منخفض ذو لونين من الأبيض والأخضر يجري في الجانب الآخر منا تجاه الغيل.

وقد قطعنا الآن حوالي خمسين ميلاً من رحلتنا. وعن يسارنا في الحافة الصخرية المنحدرة من الوادي تقع كهوف مستوطنة، لأولئك البشر، من الرعاة البؤساء لقطعان المشايخ الذين يقسمون وقتهم بين رعي الغنم وفلاحة الحقول التابعة لبدو آل جابر من العرب في وادي حرو بعد تجمع مياه السيول. وفي البداية شاهدنا فقط الغنم مع حمير قليلة ونساء. ثم اندفع الرجال والصبيان خارجين من مخبئهم في منطقتهم المكتظة بالسكان ليتبادلوا الأخبار مع مرشدينا، عندما توقفنا لاستكمال ما نقص من إمدادنا من بركتهم. ولقد كانوا قوماً ودودين، ومفرطين في الفضول وحب الاستطلاع، على الرغم أن مرور السيارات عبر واديهم لم يكن شيئاً جديداً. وعندما نزلنا، سرعان ما وصلنا إلى حافة وادي حرو وعبرناه إلى الضفة اليمنى، التي لزمناها حتى تجاوزنا مساحة هائلة من الأرض المراحة، وتتناثر فيها مبان متفرقة من الطين والحجارة حتى قرية كريف ضبوعة الصغيرة والمهجورة الآن. وفيها بركة صغيرة

محاطة بحـزام من التراب وأشجار العَلْب. وقد اقتـرحت أن نقف هنا لتناول الغداء، ولكن مرشدينا من آل جابر اعتـرضوا على أساس أنه -على الرغم من الفراغ الواضح في المكان وخلوه- ربما يكون هناك ناس حولنا. وفي هذه المنطقـة كان من الأفضل -كما قالوا- أن نتفادى اجتماع الناس غير الضروري. وهكذا واصلنا السير، حيث كان الدرب محدداً بحجارة في الوادي، الذي كان اتساعـه يبلغ ميلاً أو أكثر، وبه كثير من النباتات. وبطول الناحـية التي عن يسارنـا امتد جرف منخـفض من الحجر الجيري، وعند ثنيته عبرنا قناة السيل لنـتوقف على الجانب الآخر لتناول الغداء وسط واد ضيق تنتشر فيه شجيرات السنط والسرح.

ولم يكن غداؤنا فاخـراً، بل كان يتكوّن فقط من معجون التـمر والسمك الخام المجـفف (اللخم)، الذي يشكل الوجبـة الرئيسة للبدو وركـاب القـوافل في هذه المناطق. ويقـولون إن السمك يأتي من كـمران ، وهو نوع جـد عادي من السـمك، والذي يذهب قليل منـه لمسافـاة بعـيدة، وهو مُغَـذٍّ بلا شك، ولكن طعـمه يفـوق الوصف، وبالتأكيد ليس بنفس سوء رائحته. والقناة التي عبرناها وأخرى على الجانب الغربي من الشجيرات كانتا روافد من وادي حرو الرئيس، والذي يقع رأسه في أرض مرتفعة قليلاً على مسافة بعيدة إلى الغرب. وحرو يعود إلى آل جابر من وادي عـم، وهم مع آل عَـمْر وأهل عـبدالله يشكـلون اتحاد آل كـثيـر. المشايخ، الذين يزرعـون أرضهم، يحصلون على نصف المحصول، ولـكن عليهم أن يوفروا البذور علاوة على العمال. وعلى كل حال، في وقت مرورنا كان الوادي خالياً ومهجوراً، ينتظر الأمطار الموسمية.

ويمتـد الطريق الآن تـقـريبـاً نحـو الجنوب-الجنوب الغـربـي في سـهل مـيء بالشجيـرات والذي يصرف جزءا من مياهه في منخفض حـرو، والجزء الآخر في ممر رسب الضيّق الذي ينحدر إلى أسـفل من قناة عميقة وضيـقة حتى وادي عدم. وعلى طول حافته على الجانب البعيد تقف نصف دستـة من المباني تشبه الحصون يسكن فيها

عدد قليل من السكان المؤقتين (من آل جابر). وتبدو غير مأهولة الآن، حيث لم نر فرداً واحداً من البشر. وبعد أن سرنا حوالي ستة أميال بعد الغداء أتينا على الصدع الذي يشكل رأس ممر رسب الضيق، وهو يهبط إلى المستوى الأسفل في جرف شبه دائري وشديد الانحدار بحوالي ستين أو سبعين قدماً. وعلى كلا جانبينا امتدت سلسلة جبال منخفضة، وعند ملتقى الطرق بها كان درب السيارات يسير في خط مستقيم فوق سهل واسع ممتلئ بالشجيرات. وبعد عشرة أميال أخرى وصلنا إلى النقطة التي يرتفع عندها الطريق على سلسلة الجبال على طول رف صخري وعر قليلاً. وفي القمة على ارتفاع مئة وخمسين قدماً فوق السهل، كنا أعلى بحوالي ١٠٠٠ قدم من قمة با عشمين».

وعلى الجانب البعيد من سلسلة الجبال تحتنا يمتد وادي زبون، العامر بالشجيرات، والذي تصرف فيه المرتفعات القاصية عن يسارنا في الأمام مباشرة في وادي عدم. ووراءه مرة أخرى، وبعد أميال قليلة، اعترض شعب سلتوه مسارنا في طريقه إلى الشريان الرئيس نفسه. وكانت الهضبة التالية وعرة وصخرية وتنتشر فيها بقدر معقول أشجار قصيرة توقفت عن النمو، وذات جذوع سميكة، وهي على وجه التحديد أشجار البشام أو البلسم، والتي أهملها جيل قد نسي تجارة التوابل القديمة في وطنه. وقد انتهت هذه الهضبة عند حافة جرف منحدر يشرف على منطقة طبيعية كثيفة الأشجار تجري خلالها الجداول الكثيرة المتفرعة من وادي العشرة نحو الغرب حتى عدم. ومن حافته استطعنا أن نرى على البعد سلسلة جبال الفقرا الشاهقة التي تواجه نحو الجنوب المحيط الهندي. وقد أفضى بنا طريق وعر قليلاً إلى واجهة الجرف في أخدود عميق، الذي يتسع عند قاعدته في أول قناة من قنوات عشرة. وعلى يمين طريقنا تقع أربعة أو خمسة قرى صغيرة في مستوطنة ريدة بعدد سكانها القليل من عرب المعارة الذين يزرعون الأراضي المنبسطة -التي تروى بمياه السيول من هذه

الأودية- بالدخن والمحاصيل الأخرى ضئيلة القيمة. والجرف خلفنا يشكل حداً طبيعياً بين قبائل آل جابر والمعارة. ويتكوّن وادي العشرة من ثلاث قنوات مهمة وعدة قنوات أخرى رافدة وهي التي واجهنا قليل من الصعوبة عند عبور بعضها.

وخلفها تمتد مجموعة ثانية من مجاري التصريف الضحلة على كلا جانبي قناة رملية واسعة تنتشر عليها مجموعة مماثلة من القرى الصغيرة المأهولة أيضاً بقبائل المعارة. وهذه تشتهر باسم وادي ريدة، ويجب أن تعد القرى وهي ديرة آل با حسن والقرن، وآمون، والقزة، وبثي وقليل غيرها، جزءاً من منطقة مأهولة واحدة، تشمل أيضاً قرى عشرة. وأكبر قرية من هذه القرى، وهي ديرة آل با حسن، تقع فعلاً على الطريق، وقد توقفنا فيها لتوظيف مرشد يكون رفيقاً يسهل لنا المرور خلال منطقة قبائل المعارة. وقد وقفنا تحت شجرة «عَلْب» رائعة مترامية الأغصان، وكانت هناك أشجار كثيرة مثلها متناثرة في أرجاء الوادي، مع أشجار السنط وقليل من النخيل: وسرعان ما طوقنا سرب ضخم من فتيات ونساء القرى. وكن جميعاً يغطين وجوههن بالكامل، ولا نستطيع أن نرى عيونهن إلا بصعوبة، ولكن يبدو أنهن كن على قدر قليل من الجرأة وعدم التحفظ وفي منتهى التودد، وكثرة الثرثرة، وكن يتزاحمن ويتدافعن على السيارة ليحدقن في داخلها. وقد مكثن يسلينا بهذه الطريقة إلى أن جاء رجل. وبعد التبادل للتحايا معنا، أخذ مكانه في السيارة. وربما يعود لنا غداً أو بعد غد أو في الشهر القادم، ولكنه بقدر ما أستطيع أن أتذكر لم ينبس بكلمة وداع واحدة لأي شخص. وهنا بدأ محمد تشغيل المحرك، وقفزت النسوة المذعورات مبتعدات عن هذا الوحش الحديدي، وانطلقنا في طريقنا.

وتبعد القرن ١٤٠ ميلاً عن عقبة با عشمين بالطريق البري، وكنا لا نزال على ارتفاع حوالي ١٠٠٠ قدم فوق تلك النقطة، ولكنا نزلنا على الأقل ٤٠٠ قدم من قمة الجرف. وقد واصلنا لما يقرب من ميلين التزام الضفة اليمنى لقناة ريدة حتى أتينا على مقابر، تشرف عليها قبة بيضاء لقبر أحد الصالحين. وهنا عبرنا قاع مجرى

السيل وكان من رمل ناعم نسبياً، وبعده عبرنا أيضاً قناة رافدة تسمى شعيب ضنتة وتقع قرية آمون الصغيرة على ضفتها اليسرى. وقد كان سطح الهضبة بعد ذلك وعراً وكثيراً ما تقطعه خطوط تصريف ضحلة، والتي تجاوزناها في حينه حتى وصلنا إلى الأرض المرتفعة الأسهل من ورائها. والآن دخلنا بالتدريج في ممر على كلا جانبيه سلاسل جبال منخفضة ومتقاربة بالإضافة إلى سلسلة من القنوات الضيقة، وكلها تنزل للأمام معنا لمسافة معينة إلى أن تلتوي مرة أخرى لتصب في ريدة. وعند رأس الممر، وعلى ارتفاع حوالي ٥٠٠ قدم أعلى من القرن، وجدنا أنفسنا على تجمع أمطار مهم. وقد اعترضت سلسلة جبال نحيلة تماماً هنا بين آخر رافد في شبكة روافد ريد ووادي دسبة على الجانب الآخر، والذي تتدفق مياه سيوله لتصب في المحيط الهندي، من خلال ممرات ضيقة وعميقة ومنحدرة. ويسير درب السيارات عبر سلسلة الجبال وينزل بانحدار إلى وادي دسبة، حيث توقفنا فيه لنأخذ ماء من أحد البرك على بعد نصف ميل باتجاه تيار المجرى. ويأتي الوادي من الجنوب الغربي ويتجه إلى الجنوب الشرقي خلال ممر شديد الضيق بين كتلتين ضخمتين من مرتفعات الحجر الجيري -الفقرة.

وعند مكان تجمع الأمطار - على بعد ١٦٥ ميلاً من باعشمين - كنا على ارتفاع حوالي ٤٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، ولكن مرتفع الحجر الجيري هو الجزء الرئيس أو المركزي من جبل أو سلسلة جبال أمامنا خلف وادي دسبة، كان يرتفع إلى ارتفاع شاهق بقدر عظيم. وكان الوادي نفسه كثيف الأشجار، بأنواع من أشجار السط تسمى القرضة، ذات أوراق شديدة الاخضرار وأغصان ممتدة مثل شجر الأرز. ويقوم البدو المحليون بصنع صبغة من أوراقها المسحوقة. والانحدار إلى الوادي من تجمع الأمطار كان حوالي ٣٠٠ قدم. وقد أفضى بنا طريق معبد بطريقة ممتازة به ثنية حادة واحدة وارتفاع منحدر إلى مستوى مرتفع حوالي ٥٠٠ قدم فوقه على الجانب الآخر. وكانت الشمس قد مالت للغروب، وكنا نسرع الخطى بأقصى ما نستطيع،

وتارة نرتفع لأعلى وتارة أخرى نهبط إلى أسفل، وتارة نلتف حول محيط كتل الحجر الجيري الهائلة التي كانت ترتفع إلى عدة مئات من الأقدام فوقنا. وقد قطعنا آخر خمسة أميال في الظلام، ثم بعد أن يئسنا من الوصول إلى رأس الطريق في وقت معقول، قررنا أن نخيّم حيث كنا. والبقعة التي اخترناها تقع قرب رأس صدع عميق ومباشرة وراء مضيق صغير بين كتلتين من كتل التلال، والتي تقف عليها بحوار الطريق آثار كوخ صخري وحيد، وهو إما كوخ أحد الرعاة أو ربما محطة تجارية على الطريق من العهود الماضية. ويشتهر هذا الأثر باسم «الشيخة»، والأخدود الصغير يسمى شعيب رصع. ومن الواضح أنه رافد من وادي غنم.

وفي العشاء تناولنا أرزاً مع السمك المجفف (مسلوق ومحمر). وكنا قد قطعنا فقط ما يزيد على ١٨٠ ميلاً من الممر ونحن على ارتفاع حوالي ٤٦٠٠ قدم فوق سطح البحر. وإلى الجنوب والغرب لم يكن هناك شيء ذو أثر هام في المنطقة، وكانت قمم التلال ربما تصل إلى حوالي ٥٠٠٠ قدم فوق البحر. وعلى كل حال، كانت الأرض إلى الشمال الشرقي ترتفع بقدر أكبر، وضلوع الجبال العظيمة تمتد إلى أسفل من قمم تبلغ ٦٠٠٠ قدم أو أكثر نحو البحر، وهناك سلسلة لا تنتهي من مثل تلك الجبال، واحد تلو الآخر صوب الشرق حتى مد البصر. وكان السطح الجيري الوعر للمنحدرات حولنا مغطى بشكل كثيف نسبياً بشجيرات غريبة المنظر تسمى «دينّي»، والتي كانت جذوعها الدرنية الضخمة تتدفق باللبن بمجرد خدشها خدشاً بسيطاً. وكان هناك شجيرة مماثلة ،تسمى «الدمعة»، ينزل منها سائل ذو لون داكن. وليس هناك استفادة من كليهما ،بقدر ما أستطيع أن أتذكر، ولكن المادة الصمغية واللبن ذي الرائحة الخفيفة قد يكونان على الأرجح استخدما في العصور القديمة عندما كانت مثل هذه الأشياء مطلوبة. وكان مرشدنا من قبيلة «المعارة»، ويدعى طالب قد أحضر لي صفيحة مملوءة بالماء حتى تكون جاهزة بجوار فراشي للوضوء عندما نحين صلاة الفجر. وبعدما وضعها كسر غصناً صغيراً من نبات قريب ووضعه بعناية

بالعرض على أعلى الصفيحة. وقال رداً على استفساراتي: إنه سوف يبعد الأرواح الشريرة عن طريقنا[1]. وكان الجو معتدلاً يبعث على السرور في هذا الارتفاع الشهق. وكان الحد الأدنى لدرجة الحرارة أثناء الليل أعلى من ٧٠ بقليل.

وفي الصباح التالي نهضنا في ساعة مبكرة، واستأنفنا رحلتنا عند الخامسة والنصف، وكنا نهبط بسرعة ثابتة. وكان الطريق وهو لا يزال يتبع محيط تضاريس كتل التلال قد التف واستدار عندما كان يطوق رؤوس الشقوق الضخمة التي تنزل إلى الأودية من على جانبي سلسلة شاهقة من جبال الحجر الجيري. وكان أمامنا خمسة أميال فقط لنقطعها، وسرعان ما وصلنا إلى نهاية الطريق على جرف عال يسمى رأس الحروة. وقد نزلنا ٧٠٠ قدم من أعلى نقطة وصلناها في اليوم السابق على الضفة اليمنى لوادي دسبة، وكنا الآن على ارتفاع حوالي ٤٠٠٠ قدم فوق البحر. ولم نتعرض لأي صعوبة خطيرة في أي نقطة على الطريق. ومع مرور الزمن بالرعاية والاهتمام سوف يتحسن هذا الطريق بلا شك، ولكن من الصعب الاعتقاد بأن طريقاً أفضل من الساحل حتى وادي حضرموت سوف يؤسس بعيداً إلى الغرب كما قد يود سكان المكلا. وقد حبا الله الشحر فرصة عظيمة الآن؛ لأن حركة مرور السيارات لكل من المسافرين والبضائع قد أصبحت سبباً جوهرياً من أسباب الراحة والمتعة في الحياة بجنوب الجزيرة العربية. وسوف تربح الشحر كثيراً من هذا الطريق، ولكن -في هذ الوقت- لا تزال فجوة شاسعة من المنطقة الوعرة فاغرة فاها بين «أقصى الشمال» في رأس الحروة ورأس جزء الطريق الممتد من الشحر إلى المعدي. وعلى كل حال، في غضون الأشهر التسعة التي انقضت منذ مروري عليه، كانت هذه الفجوة قد تم

(١) في هذا التصرف إشارة إلى ما ورد في «صحيح مسلم» رقم (٢٠١٢) عن جابر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. أنه قال: «غطُّوا الإناء، واوكوا السقاء، وأغلقوا الباب، وأطفئوا السراج؛ فإن الشيطان لا يَحُلُّ سقاءً، ولا يفتح باباً، ولا يكشف إناء. فإن لم يجد أحدكم إلا أن يعرض على إنائه عوداً، ويذكر اسم الله فليفعل. فإن العُويقة تُضرِمُ على أهل البيت بيتهم». (المراجعون).

التغلب عليها وردمها، وأضحى من الممكن الآن أن تسافر المسافة كلها من الشحر حتى تريم بالسيارة. وقد تم الاحتفال بإنجاز الطريق بافتتاحه رسمياً في يونيو (١٩٣٧م) من قِبل السير برنارد بيلي، حاكم مستعمرة عدن. والآن من الممكن حقيقة أن تسافر بالسيارة من المكلا إلى مكة المكرمة أو إلى دمشق أو لندن.

وكان علينا أن نترك السيارات في رأس الحروة تحت حماية مندوبي قبيلة آل جابر الذين رافقونا، ونسير على الأقدام إلى المعدي بعيداً إلى أسفل في الوادي، حيث سيأتي في الوقت المناسب مندوبو باحسن (الحمومي) ليتولوا المهمة أثناء غيابنا على الساحل. ولم نتمكن من رؤية البحر نتيجة للضباب الذي يمتد فوق السهل الساحلي والتلال التي تحفه. والمنظر العام لتلال وسلاسل جبال الحجر الجيري التي تنتشر أمامنا كان مخيفاً نسبياً، ولم نهدر الوقت سدى أكثر مما هو ضروري لجمع أمتعتنا وتغطية السيارات ضد احتمال سوء الطقس. وكانت هناك دائرة واسعة، خالية من الصخور تقريباً، استخدمناها كموقف للسيارات وموقع للمخيّم. وقد ودعنا مرشدينا من آل جابر وانطلقنا في المشي نازلين من التل، وكان الكاتب والسائقان الاثنان والمرشد المعري وأنا نحمل أمتعتنا.

وبدأنا السير في السابعة صباحاً نحو الشرق على طول الحافة اليمنى لمر وادي غنم الضيق العميق، والذي يقع قاعه على بعد حوالي ٥٠٠ قدم تحتنا. ومن الواضح أن وادي دسبة يتصل بهذا الوادي بعد مسافة طويلة، كما يتصل به أيضاً شعيب رمع الذي أقمنا مخيمنا بجواره لقضاء الليل. وكان الطريق مستوياً في الميلين الأولين أو نحوهما، حيث كان سطحه الصخري قد اهترأ وأصبح ناعماً في أجزاء منه بما يشبه الرخام نتيجة مرور القوافل عليه. وبعد المشي حوالي ثلاثة أرباع الساعة أتينا إلى نقطة مقابلة لدرب الجمال والحمير المتعرج أعلى الممر المنحدر لعقبة عرشة. وهذا هو الطريق المعتاد للقوافل المتجهة من الشحر إلى تريم أو وادي عدم أو غيل ابن يمين. وعند سفح

الممر، في وادي غنم، توجد بقعة صغيرة من أشجار النخيل تسمى «غيضة العقبة». وعلى جانبنا من الوادي، وعلى ارتفاع شاهق بجوار الطريق، كان كتفاً غريباً مقوساً بصورة طبيعية يبرز إلى الخارج من صفحة الجرف.

تحولنا الآن إلى الجنوب الشرقي نازلين على المنحدر غير شديد الانحدار ولكنه صخري على جانب التل، وكنا متجهين إلى ممر المعدي الضيق بحق. وبعد ساعة من المشي وصلنا إلى رأس درب متعرج نازل إلى عقبة وعرة. وفي خلال نصف ساعة أخرى وصلنا واحة من أشجار النخيل (نخيل التمر وجوز الهند) في أرض الممر. ومن رأس الحروة حتى كتف الجبل كنا قد نزلنا حوالي ٢٠٠ قدم. وكانت قمة عقبة المعي منخفضة عنا بحوالي ١٣٠٠ قدم، والواحة -التي دخلناها- كانت منخفضة بمقدار ٨٠٠ قدم أخرى أسفلها. وهكذا كنا قد نزلنا ما مجموعه حوالي ٢٣٠ قدماً منذ أن غادرنا السيارات، ومن هناك وحتى رأس الطريق في جانب الوادي للشحر يكون الأمر مختلفاً، ولكن حتى تلك الصعوبة قد تم الآن التغلب عليها.

وبأقصى ما أستطيع أن أتذكر، لم أكن قد رأيت نخيل جوز الهند وهو ينمو طبيعياً منذ أيام طفولتي في سيلان. وكان من دواعي سروري أن أراها الآن، وهي تشارك هذا الممر الاستوائي الضيّق مع نخيل التمر المألوفة. وكان التمر قد تم -بالصبع- جنيه منذ زمن طويل، ولكن جوز الهند كان يانعاً، ولم أمكث وقتاً طويلاً إلا وكنت أعب من سائله الطازج وألتهم لبه الأبيض، في حين كانت وجبة الغداء وسط النهار يتم تحضيرها. وكانت أشجار التين البري[1] واضحة أيضاً بكثرة، وكانت أسراب هائلة من طائر السوادية -وهو طائر ذو ريش أسود لامع- مشغولة بثمراته الضئيلة، وهي تحتج بنغمات عذبة على غزونا لمجالها وتطير لتلوذ بالجُرُف الناتئة فوقنا، ولكنها تعود دائماً إلى أكل وجبتها. وقد ذكر هانز هلفريتز الببغاوات ضمن

(١) يطلق عليه في الحجاز "البرشوم". (المراجعون).

من يقيم في هذا الفردوس الصغير، ولكني لم أر أياً منها بالتأكيد. وكانت طيور القنبر والبلبل تبدو مبتهجة ومتمتعة بالماء والظل. وتنمو أشجار الكَوْثل -وهونوع من فصائل النخيل- البنغالية هنا فقط من بين جميع مناطق الجزيرة العربية.

إن المعدي بقعة ساحرة بأقصى قدر يتمناه المرء، فأشجار النخيل والتين ،إضافة للصخور الضخمة الهائلة التي سقطت من فوق، تمنح ظلاً ظليلاً من وهج الشمس الساطعة على هذا الممر الضيق من سماء خالية من السحب. وكان الجو حاراً وشديد الرطوبة على نحو مزعج. كما كان هناك جدول صغير فيه ماء دائم طول السنة يجري برقة وضعف حتى الوادي، وقد سده تراب الردم والصخور حتى أصبح بمثابة بركة متوسطة الحجم ومليئة بالنباتات المتعفنة، ويسكنها العديد من الضفادع وصغارها. ويوجد اثنان أو ثلاثة من الأكواخ الحجرية البائسة، ترتفع كثيراً فوق قمم الأشجار، على المنحدر الحاد بالضفة اليمنى، مكونة قرية صغيرة. وكان سكانها الذين قد لا يزيدون على أربعين أو خمسين شخصاً كما قالوا جميعاً، لا يحتاجون بوضوح إلى المأوى إلاّ نادراً لاتقاء العوامل الجوية. وسرعان ما اندفعوا حولنا مثل النحل، ولكن جاء الرجال فقط، أما النسوة فكل ما رأيته كان اثنتين أو ثلاثاً من العجائز اللائي كنّ قد نزلن إلى البركة ليأخذن الماء. وكان الصبية يصطادون حول الماء بالمقلاع ويطاردون الطيور. وقد أصاب أحدهم طائراً من طيور السوادية. وآخر قتل اثنين من القنبر، وسقط بلبل أيضاً صريعاً بفعل مهارتهم. وقد كانوا ودودين أيضاً، دون أن يكونوا معاندين ومكابرين، وكان معظمهم جميل المحيا بصورة مذهلة، ذوي ملامح طيبة وأجسام في اتزان تام. وكان الرجال أيضاً -في معظمهم- ذوي طلعة وسيمة، أجسامهم صغيرة ولينة غضة، ولكنهم كانوا رجالاً أشداء باستثناء أخلاقهم وحديثهم، الذي كان جهورياً ويميل إلى المشاكسة والخصام. وبالنسبة لهم لم نكن ضيوفاً: بل مسافرين أو عابري سبيل، أي ضيف الله، يجب أن يخدمونا بإخلاص وأمانة حتى ينالوا أقصى قدر ممكن من الفائدة لأنفسهم. ومنذ عهد سحيق كانوا يحتجزون هذا

الممر لأخذ المكوس أو الأتاوة من أولئك الذين يجدونه ضرورياً أو ملائماً للمرور. وقد زودهم الله وحده بضروريات الحياة، -التمر وجوز الهند-. وكانت المكوس التي يجمعونها توفر لهم الكماليات والترفيه مثل: السمك المجفف من الساحل، والملابس لنسائهم، وبقدر أقل لهم هم أنفسهم والتبغ الذي يبللونه ويضعونه في أفواههم ليمضغوه[1]. وكانوا يحتفظون بالغنم والماعز حتى يحلبوها ويشربوا لبنها أو يبيعوها لحماً، ولديهم القليل من الإبل لتحمل محصولهم من جوز الهند إلى السوق ولتأجيرها في النقل لعبور الفجوة التي لا يوجد بها جسر في طريق السيارات. وبالسبة لهم كان إنشاء الجسر المقترح على تلك الفجوة يبدو خطراً يهدد حياتهم وكسب رزقهم، ولذلك قاوموا جميع المطالبات والمناشدات التي وُجِّهت إليهم للحصول على موافقتهم على تنفيذ هذا العمل. وهكذا قامت هذه الجماعة الضئيلة من السكان، والتي لا يكاد عدد أفرادها يبلغ أربعين فرداً، بإعاقة خطة ذات مزايا محتملة هائلة يستفيد منها عشرات الآلاف من جيرانهم، ولم تكن حكومات حضرموت قادرة على إقناعهم أو إجبارهم على أن يكونوا أكثر تعقلاً وحكمة.

ولم نكد نحط رحالنا لنقيم مخيماً في أماكن ظليلة حول البركة إلا وبدأت المسومة على ثمن عبورنا. وكان هؤلاء القرويون يدركون ما نحتاجه دون أن نخبرهم بذلك. وكنا نحن أيضاً نعلم ما يريدون، ولم يكن الأمر أكثر من مجرد تعديل احتياجاتنا حسب طلباتهم. إن هذه المهام دائماً أتركها في المرحلة الأولى لرفاقي. ولذلك بعد أن اطمئن قلبي إلى أن الأواني اللازمة لطهي وجبة غدائنا وسط النهار يمكن أن توفرها القرية لنا؛ لأننا قد نسينا فعلاً إحضار غلاية الشاي، ولم نذق طعم الشي أو القهوة منذ أن غادرنا تريم، اخترت أشد الأماكن ظلاً في المنطقة المجاورة

(١) يبدو أن المقصود هو ما يعرف بالسويكة أو الشمة، وليس التبغ، لأن التبغ معروف أنه يستخدم بشكل آخر. (المراجعون).

وهيأت نفسي لنوم القيلولة. وكان صياح القرويين الذين يساومون قد اندمج بصورة غير محسوسة في حلم، واستيقظت منه لأجد الطعام جاهزاً للأكل، وكان يتكون من الأرز والسمك المجفف، وهذا الأخير كان محمراً، ثم جوز الهند والشاي والقهوة.

وبعد ذلك كان لزاماً عليَّ أن أهتم بأمر الصفقة. وكان رفاقي قد جهزوا أرضية ملائمة للنقاش، وليس أكثر من ذلك. وقد اعترض مضيفونا بقوة في البداية على ذهاب مرشدنا المعري معنا إلى (الشحر)، التي كان يريد زيارتها. واستطاعوا أن يطالبوا بسيارة «أي رسوم مرافقة» لتوصيله بأمان إلى السيارات، حيث يستطيع أن ينتظر عودتنا هناك. ولم نكن بحاجة إلى خدماته بصورة حيوية؛ ولذلك لم يكن من الصعب أن نعقد اتفاقاً عاماً بأنه يجب -بعد كل ذلك- أن يذهب معنا. والقطعة التالية كانت رسوم المرافقة. فقد وافق رفاقي من حيث المبدأ على دفع رسوم رمزية قدرها نصف ريال لكل رجل يخدمنا. وطلب القرويون مضاعفة المبلغ، ولم يكن من الصعب الوصول إلى حل وسط، حيث اتفقنا على أن الرجلين اللذين سيرافقاننا إلى الشحر سوف يتقاضيان نصف ريال لكل منهما، أما الاثنان اللذان وقفا حراسة على السيارات فسوف يحصلان على ضعف ذلك. وقد قوبل هذا الاتفاق بالاستحسان والهتاف كتقدير حكيم. ولكن ماذا تفعل جماعة السيارات في مسألة إحضار الماء؟ وسوف يصبح من اللازم أن ندفع على الأقل نصف ريال كل يوم لشخص ما لإحضاره، وأيام إقامتنا المؤقتة على الساحل ليست معدودة؟ ولهذا اقترحت ،حيث إن الرعاة يستطيعون الحصول على الماء من أماكن منعزلة في زوايا الجبال وشقوقها المعروفة لهم، أن يتم دفع رسم قدره ريالان بغض النظر عن طول مدة غيابنا. وقد تم الاتفاق على ذلك. وهكذا كان كل شيء قد تم تسويته بصورة سعيدة بيننا وبينهم. ويبقى أمامهم أن يتفقوا فيما بينهم على من سيذهب للسيارات ومن سيأتي معنا، من

سيضطر للبقاء في بيته. وقد نتج عن هذه المشكلة الكثير من الإثارة أكثر من التسوية معنا. فقد كان كل واحد منهم يريد أن يربح من هذا الاتفاق بأقل قدر ممكن من الإزعاج لراحته الشخصية. ومن الواضح أن رئيس هذا الجمع الصغير هو عوض، الشعب ذو الشعر المجعد والملامح الحادة الماكرة، على الرغم من أنه كان وسيماً. وكان هو مع فرد آخر سيذهبان معنا لأنه إذا كانت المكافأة المتفق عليها قليلة فالترف الموجود في لشحر سيكون أفضل من ليالي الجوع المؤلمة في تلك الفيافي والقفار. وكان رجل مسنٌ جداً قد بلغ من العمر عتياً -ومن الواضح أنه متمرس على الجوع بحكم خبرته الطويلة أكثر من الباقين- هو المرشح الواضح للإقامة المؤقتة لمدة طويلة بالصحراء. ولذلك كان الجدال يعلو وينزل، وفترات الصمت تتبعها فترات من الصياح والصراخ الحاد. وكلما تحدث رجل بدأ الجميع في الحديث، وواصل كل فرد الحديث عندما كان كل فرد آخر يتحدث. والصمت الذي يلي ثورات الشرثرة الكثيرة هذه كان صمتاً مطبقاً. واختراقه من أي فرد منهم كان إشارة لبابل حتى تبدأ الحرب مرة أخرى. وهكذا ظل الوضع على هذا الحال حتى العصر، عندما حان وقت استئناف رحلتنا.

واللغة التي تحدثوا بها كانت بالطبع اللغة العربية، ولكن نطقهم لها كان يعتريه تغييرات غريبة ومثيرة، حيث كانوا ينطقون على سبيل المثال كلمة «مي» عوضاً عن «ماء» (أي الماء) و «قيرش» عوضاً عن «قرش» (أي ريال) و «قيربة» بدلاً من «القربة»، وهلم جرا. ويبدو أن الاختلافات كانت تتركز بصورة رئيسة في حروف العلة، ولكن بالرغم من كل شيء، كان هؤلاء الناس المعزولون في ذلك الوادي البعيد أيسر في فهم كلامهم من البدو الحقيقيين، الذين يكون حديثهم عني بالتفاصيل وتعبيراتهم أشد تلميحاً وغير مباشرة. ولم يبق أي شك في ذهني عن صلات القرابة الساميّة لهؤلاء الناس من آل معدي، وبنيتهم الجسمية الصغيرة كانت ناتجة بالتأكيد عن سكناهم في بيئة جبلية. إن عشيرة آل باحسن فخذ من قبيلة الحموم، وهي مجموعة من اتحاد المشقاص الجنوبيين الذي يضم جميع العناصر من غير آل كثيري جنوب

القسم الشرقي من وادي حضرموت. والمشقاص الشماليون يشملون كلاً من قبائل المناهيل و العوامر و تميم[1].

وفي حوالي الثالثة والنصف انطلقنا من مخيمنا بجوار البركة. وبعد أن عبرنا إلى الضفة اليسرى من الوادي مقابل بيوت القرية، سرنا على درب مستوٍ تقريباً يرتفع حوالي ٣٠٠ قدم فوق قاع الوادي. وكانت أشجار نخيل التمر وجوز الهند (كثب). وتبدأ من حوالي ثلاثة أرباع الميل فوق البركة، قد امتدت باتجاه مجرى الوادي ما يزيد تقريباً على ميل. وفي أحد البساتين المنخفضة يوجد الضريح الواضح بجلاء، ذو لقبة البيضاء، وهو لأحد الأولياء المحليين، «عبدالقادر الجيلاني» البغدادي. ويبدو أن أحداً لا يعرف كيف جاء هذا الولي المشهور إلى هنا. ولكن هاهو هنا، وقبره يحظى بالتبجيل والاحترام من السكان المحليين، ويقام له احتفال سنوي، اعتقد في شهر ربيع الأول، وهو عيد النيروز القديم بعد أن تم تحريكه من مكانه بالتقويم القمري للإسلام. وقد أخبرنا عوض وأحمد، وهما المرافقان لنا من آل معدي، بحادثة وقعت منذ عدة سنوات مضت عندما انتهز أعداؤهم فرصة الاحتفال وشنوا هجوماً عليهم. وعلى كل حال تم إيقاف المهاجمين بسهولة على مسافة بعيدة بنيران البنادق المنطلقة من سلسلة الجبال المقابلة[2].

وعلى مقربة من أسفل ضريح الولي، وخلف جرف عال تلفه قلعة مهدمة لأن يتصل أخدود السيق العميق بوادي المعدي. وفي مجره عكس التيار توجد أشجار نخيل التمر وجوز الهند مملوكة لعشيرة الحيمة التي تندمج مع اليماني والمصلي في

---

(١) ذكر الحجري أن المشقاص من قبائل حضرموت، وهم رجال حراوزه وآل رعبنات، وآل علي بن كثيرة وآل كثير الغتمة والمناهيل. الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج٢، ص٧٠٨. وللتوسع انظر: البصراوي، مشرق اليمن السعيد، ص ص٥٣-٥٤. (المراجعون).

(٢) هنا تظهر للقارىء صورة أخرى من صور الانحرافات العقدية التي كانت سائدة في المنطقة في تلك الفترة وهي ظاهرة التعلق والتقرب من قبور من يظنون أنهم من الأولياء والصالحين. (المراجعون).

التلال والسهل الممتد إلى الجنوب والشرق ليشكلوا معاً جماعة الشميلي. وكلهم يعترفون بسيادة حكومة القعيطي عليهم، على الرغم أنه من الواضح أنهم لا يدفعون أي ضرائب، ويمارسون الامتيازات الأخرى للاستقلال الحقيقي.

لقد كنت أتوقع مشواراً طويلاً، ولكن لم نكد نمشي ثلاثة أرباع الساعة تقريباً، بعد الالتفاف حول جرف شاهق يشرف على التقاء السيق والمعدي، إلا وأطللنا فجأة على رأس طريق السيارات القادم من الشحر. وكان رسول قد ذهب قبل وصولنا إلى المعدي بخطابات إلى السلطان في الشحر، يطلب إرسال سيارة إلى رأس الطريق بأسرع فرصة ممكنة. وإلى البعيد نحو الشرق كنا نستطيع أن نرى خط الطريق المحدد بعلامات ظاهرة جلياً وهو يلتوي حتى سهل وادي عرف الذي يعد وادي غنم (عرنة) رافداً من روافده. بيد أن الشمس قد غربت وراءنا ولم يظهر أي أثر للسيارة المتوقعة، ولهذا خيّمنا عند رأس الطريق، على أمل أن تأتي في الغد. وفي الحقيقة وصلت السيارة بعد الغروب بحوالي ساعة، وكان كل فرد متلهف على بدء الرحلة إلى لشحر في الحال. ولكني أشحت بوجهي بقوة عن مثل هذه الفكرة، فقد كنت أريد أن أرى هذه المنطقة، وعلى كل حال سيكون من المفرح أكثر أن نصل الساحل في وضح النهار. ولذلك بعد بعض الجدال والنقاش، استقر رأينا على أن نبيت الليل هنا.

كانت مؤونتنا ضئيلة، ولكن عوضاً قدم لنا بعض التمور الرديئة وجوز الهند الممتازة والتي جعلتنا نقتصد في السمك المجفف. وقد جهزت فراشي بعيداً عن الآخرين قليلاً، وفي الظلام لم يكن هناك ما أصنعه إلا أن أحاول النوم، بيد أن صياح قوم المعدي ،بعد أن انضم إليهم في المساء آخرون من نوعهم كانوا عائدين من الشحر واثنان من مزارعي «المشايخ» العائدين بمخزون من الإمدادات إلى بيوتهم في ريدة، جعلا النوم مستحيلاً حتى ساعة متأخرة. وكان الجو بالتأكيد غير بارد، على الرغم أنه لم يكن حاراً بكل المقاييس، ولكم كنت سعيداً بما معي من بطاطين. وقد قام

عوض ورفاقه ببساطة بفك حزام كتاني زائد من إزارهم وقاموا بلفه حول أكتافهم طلباً للدفء.

وعند الفجر فتحت عيناي فوجدت صفاً من الأشكال البشرية، وهم يجلسون على امتداد الأفق، صامتون وبائسون. ولما دفّأت الشمس أجسامهم المرتعشة من البرد بدؤوا في الثرثرة. ونظراً لعدم وجود شاي فقد كنت استهلك جوز الهند، بينما كنت أشاهد المنظر المترامي الأطراف أمامي حتى البحر غير المرئي. وكانت السماء تسبح فيها غيوم قليلة، وانتشر الضباب بثبات فوق السهل، وشكّل مدينة ضب ضب التي لا تظهر إلا قليلاً في ظلمة الضباب، مع حصنها البرتغالي، على مسافة بعيدة إلى اليسار من الشحر. وكانت المرتفعات تمتد خلفنا ونتوءات جرفها الهائل تبرز للخارج -واحدة تلو الأخرى- نحو الشرق. وكان زوج من طيور السوادية يلهو بنفسه على شجرة البشام قريباً منّا. والأرض الصخرية كانت مفروشة بشجيرات الدمعة التي ينز منها سائل أسود.

وبعد السادسة فوراً تجمعنا نحن وأمتعتنا في الشحنة وانطلقنا نازلين من التل. وأفضى بنا درب متعرج منحدر إلى النقطة التي يتقدم عنها وادي المعدي عبر سلسلة الجبال في ممر ضيق رائع. وقد تسلقنا مضيقاً منخفضاً في المرتفعات ونزلنا منه في وادي الصوير الموازي له ليشكل سهلاً واسعاً. وبعد حوالي أحد عشر ميلاً وصلنا إلى طريق الشحر- المكلا الرئيس حيث تمتد بساتين نخيل السلطان في الحبس وقرية الحوا إلى البعيد قليلاً عن يميننا. وكنا الآن نسير على طول سفح سلسلة طويلة من الجبال تتناثر فيها مسلات مثل أبراج الساعات، كنا نلتف حول ثنيتها الجنوبية حتى أصبحنا في مواجهة قرية تبالة التي تقبع على سلسلة جبال وسط بساتين النخيل. وهذا المكان مشهور بعيونه الحارة التي يلجأ إليها كثير من السكان المحليين طلباً للعلاج. وكان هناك حصن رائع على جرف عال يطل على القرية والطريق، وقصر السلطان الصيفي

الأبيض الذي يبهر الأبصار هما من المعالم الواضحة في تلك المنطقة. وإلى البعيد نحو الشرق وقرب الساحل توجد مجموعتان مماثلتان من العيون الحارة في الديس والحامي.

ويستمر الطريق على طول الجانب الشرقي من سلسلة الجبال التي ذكرناها من قبل مع امتداد نتوءات من سلسلة تبالة على يسارنا. وبعد أميال قليلة ألقينا أول نظرة لنا على البحر، وكان لونه رمادياً، كئيبًا حزينًا، يتحرك ببطء. وفي الوقت نفسه -تقريباً- لمحنا منظر أسوار الشحر، وبوابتها البيضاء اللامعة تتجه للشمال. وعلى طول الطريق كان هناك خط أنابيب يحمل الماء العذب من عيون تبالة الحارة إلى المدينة. وهكذا بعد مسيرة عشرين ميلاً بالضبط من رأس الطريق، دخلنا الشحر من أوسع أبوابها. ولأول مرة في سجلات التاريخ تم عبور شبه الجزيرة العربية من الشمال إلى الجنوب.

فالرحلة التي بدأت من ساحل البحر الأبيض المتوسط، وفي الواقع كانت بدايتها الحقيقية من لندن، قد انتهت بلا حوادث على شواطئ المحيط الهندي. وباستثناء عقبة المعدي، كانت الرحلة كلها بالسيارة.